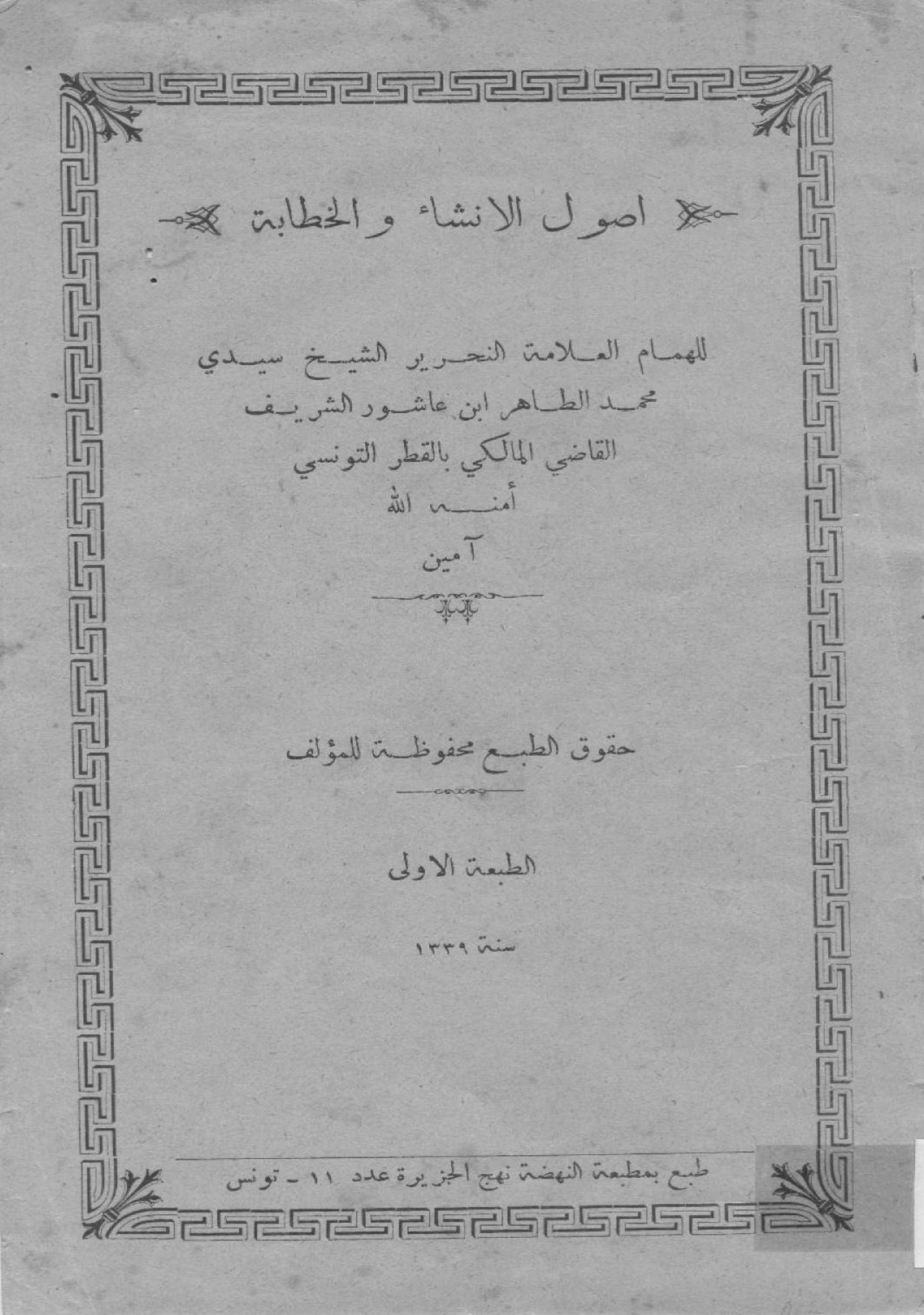


اصول الانشاء والخطابة

للهمام العلامة النحرير الشيخ سيدي
محمد الطاهر ابن عاشور الشريف
القاضي المالكي بالقطر التونسي
أمنه الله
آمين

الطبعة الاولى

سنة ١٣٣٩

طبع بمطبعة النهضة نهج الجزيرة عدد ١١ - تونس

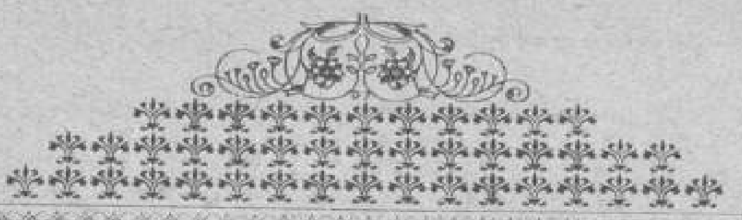
اصول الانشاء والخطابة

للهمام العلامة النحرير الشيخ سيدي
محمد الطاهر ابن عاشور الشريف
القاضي المالكي بالقطر التونسي
أمنه الله
آمين

قسم الانشاء

الطبعة الاولى

طبع بمطبعة النهضة نهج الجزيرة عدد ١١ - تونس
سنة ١٣٣٩





وصلى على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحمد لله منشىء الخلق ومعيده * وواهب البيان لراغبه ومستزيده * والصلاة والسلام على رسوله الذي ايده بمعجز القرآن * وارسله بالبينات وانزل معه الكتاب والميزان * وعلى آله واصحابه افضل من فرع المنابر * وسطرت فخره الاقلام في الدفاتر * اما بعد فان مزية فن الانشاء قد ترجمت عنها كثرة مطالبيه * ونباهة شان النابغين فيه * كيف وهو الذي يفصح به المرء عما يريد من المقصد * وطالما كفى قلم الكاتب مهمه فما ضره ان لا يهز المهند * وقد كنت امليت على بعض المتعلمين عجالة تلم بالمهم من اغراضه الماما * وتريش لقناص شوارده سهاما * وتمكن بايديهم لصعابه زماما * تجنبت فيها طريقة جمهور المؤلفين في هذا الفن اذ ملؤوا كتبهم بمسائل علم المعاني والبيان * وربما تجاوزوا الى بقية علوم اللسان * وتركوا جانب المسائل الخاصة بهذا الفن ظهريا * الا قليلا منها لا يفيد المطالع كاتبا ولا اديبا * وقد تلقفوا ذلك الصنيع فتابع المتاخر المتقدم وتشبه فيه الضالع بالضليع والعذر للمتقدمين منهم . ان علم الادب لم يكن في عصرهم منخولا بعض فنونه من بعض اما المتأخرون فانما اتبعوا طريقة المتقدمين بعد ان تمايزت الفنون حتى اصبحت طلبة هذا الفن ان هم شرعوا فيه نقلت لهم

المسائل التي قرءوها في علم البلاغة فلم يجدوا فائدة يستز يدونها * ولا مهمة ينقلونها * فربما ادخل على اذهانهم بذلك شيء من التهويس زيادة على ما اضيع من وقتهم النفيس * ولذلك جعلنا بعض مسائل فنون البلاغة لهذا الفن كالاصول نحيل عليها المتعلم * ونكتفي فيها بتوقيف المعلم * لئلا يطول الفن بلا طائل * واخذنا من كلام ايمة الفن المتنائر * ما جعلنا له قواعد وكليات وادرجناه تحتها كالشواهد فجاء شبيها بقطار نظم من مرتاض الشوارد * وجاء اول املاء فيما علمت ظهر به فن الانشاء مهذبا ممتازا عما سواه ومن خبر ما سلف من كتبه علم قيمة ما صنعنا * وكيف تتبعنا مواقع القطر فانتجعنا * وكان العزم معقودا على ان نعود الى تلك الامالي فنهذب ديباجها ونعالج مزاجها فحالت دون ذلك شواغل * وصرفت الذهن خصوم ونوازل * الى ان اشتدت حاجة الراغبين في تعلم الانشاء الى كتاب يبين طرائقه * ويدني لجانيه حدائقه * فرأيت من اختلاف طرق المزاولين * وتعطشهم الى كتاب مذكر او معين * ما حداني الى ان نفضت منها عث الهجران * وامطت عنها عناكب النسيان * ورجاءي من اهل الادب ورواته * واطباء اللسان واساته * ان يتلقوها تلقي الجيش للربيئة * ويضموا اليها ما توضحه شمس افهامهم المضيئة *



مقدمة

الغرض من تدريس الانشاء هو ابلاغ المتعلم الى الافصاح عن مراده ، كتابة او قولا من اقرب طريق وسلوك سبل الافهام باحسن ما يستطاع من التعبير ومن الواضح ان ذلك لا يحصل بقواعد مطردة بل الاصل فيه هو الممارسة ومزاولة مآثر نوابغ الكتاب في الفاظهم و معانيهم لتحصل منها في ذهن المطالع قوالب غير جزئية تفرغ فيها امثالها (١) وانما القواعد التي تدرس في هذا الفن ليست غير انموذج من طرق التعبير او كليات في حسن التنسيق واختلاف اغراض الكلام و نحو ذلك مما يجعل بصيرة المتعلم قادرة على الحكم والتمييز بين ما يجب ان يأخذه وما يجب ان يتركه . اذاً فالانشاء علم تعرف به كيفية إداء المعاني التي تخطر بالذهن او تلقى اليه على وجه تتمكن به من نفوس المخاطبين من حيث حسن ربط اجزاء الكلام واشتماله على ما يستجاد من الالفاظ ويحسن من الاساليب مع بلاغته

فقولنا تعرف به كيفية اداء المعاني يدخل فيه علوم اللغة كلها و قولنا التي

---

(١) اردت بقولي « قوالب غير جزئية » ان النتائج التي يزاولها المتعلمون هي امور خاصة جزئية وليس المراد حفظها فقط كما يتوهم كثير ممن يروم تعلم الانشاء حتى اذا دعا احدهم داع الى تحرير شيء لم يجد من نفسه قدرة على غير السرقة والاخذ مما حفظه سواءناسب المقام ام لم يناسب فيجيء انشاؤه مسلوب الروح مغسولا بل المراد من المتعلم ان يعلم تلك الامثلة الجزئية لتحصل منها صور في ذهنه من كيفية التعبير واختلاف الاساليب و ذلك هو المعبر عنه بالذوق المعرف عندهم بانه قوة ادراكية لها اختصاص بادراك لطائف الكلام ووجوه محاسنه الخفية

تخطر بالذهن او تلقى اليه لقصد التعميم لان من الناس من لا يحسن التعبير عن غير المعاني التي تخطر بذهنه فاذا كلف انشاء شيء يقترح عليه لم يستطع حتى قيل ان الافضل للكاتب ان يكتب كما يريد و يراد منه [٢] وقيل ان الحريري صاحب المقامات لما احضر من العراق لديوان الانشاء ببغداد وكلف كتابة كتاب افحم حتى قيل فيه

شيخ لنا من ربيعة الفرس * ينتف عثنونه من الهوس
انطقه الله بالعراق كما * الجمه في بغداد بالخرس

وقولنا على وجه تتمكن به من نفوس المخاطبين بها خرج به علم اللغة و النحو والصرف اذ لا يشترط فيها ذلك . وقولنا من حيث حسن ربط اجزاء الكلام الخ . لاخراج علم البلاغة لانه لا تشترط فيه تلك الحيثية و بذلك فارق هذا الفن بقية فنون الادب اللساني . و قولنا ما يستجاد من الالفاظ و يحسن من الاساليب اشارة الى ان من اخص وظائف المنشئين التدرب على اختيار اخف الالفاظ استعمالا ورونقا وتحسين اسلوب الخطاب واختيار ما يناسب المقام منها وسياتي الكلام على اختيار الالفاظ في القسم اللفظي والكلام على الاساليب بعد هذا . و قولنا مع بلاغته لاخراج ما ليس ببليغ فليس من الانشاء المبحوث عنه عرفا و انما هو التعبير عن المعاني كيفما اتفق وذلك لا يتوقف إلا على معرفة المفردات وكيفية ربط الكلم بعضها ببعض و البحث عنه في اوليات علمي النحو و الصرف. وموضوعه الكلام العربي من حيث ربط جمله و محاسن كلمه وبذلك فارق موضوع البلاغة اذ الانشاء لا يتعلق إلا بالكلام المشتمل على جمل كثيرة ولا

(٢) وقد قالوا ذلك في المفاضلة بين ابي اسحاق الصابي والصاحب بن عباد فان الصاحب يكتب كما يريد والصابي يكتب كما يراد منه و بين الحالين بون بعيد انظر معاهد التنصيص في ترجمة الصابي

يدخل الجملة الواحدة المفيدة إلا ان بعض ابواب من البلاغة لا تخلو من شديد انتساب بمسائل الانشاء كالفصل والوصل والايجاز والاطناب و بعض المحسنات البديعية . واستمداده من كلام البلغاء وخطبهم ورسائلهم واشعارهم وآداب العرب وعوائدهم ومشهور احوال الامم المعروفة و امثالها (قال ابن الاثير في المثل السائر) قد قيل ينبغي للكاتب ان يتعلق بكل علم واهم ما يفتقر اليه انواع ثمانية : علم العربية . و امثال العرب العاربة ومن بعدهم وايامهم و وقائعهم والاطلاع على كلام المتقدمين من الكتاب في النظم والنثر وحفظ كثير منه . و معرفة الاحكام السلطانية وحفظ القرآن والتدرب به . ومشهور الاخبار النبويه

ولم يكن فن الانشاء مخصوصا بالتاليف و لكنه كان من جملة فنون آداب اللغة العربية فيوجد بعض مسائله متناثرا في كتب البلاغة ومختارات خطب العرب و ملحهم و بداهة اجوبتهم وامثالهم فتكون مسائله مشمولة بالرواية من اواخر عصر الدولة الاموية اذ كان ابن القرية قد عنى بنوادر العرب و ملحهم ثم شملت بالتدوين في اوائل الدولة العباسية ضمن كتب ادب العرب مثل كتاب ابي عبيدة واضرابه ثم كان بعد مدرجا في كتب بلاغة العربية الى ان شب شباب ديوان الانشاء في الدولة العباسية وما تفرع عنها فاصبح بلغاء الكتاب يميزون مسائل هذا الفن بالتدوين و ذلك من منتصف القرن الثالث فمنهم من جمع ما صدر عنه من بديع المراسلات او الخطب او المقامات ومنهم من جمع افضل ما يؤثر عن العرب ومن يليهم من غرر الخطب و بدائع الجمل كما صنع الجاحظ في بيانه (توفي سنة ٢٥٥) ومنهم من جمع امثال العرب وموجز اقوالهم كما فعل ابو منصور الثعالبي في جل كتبه (توفي سنة ٤٣٠) ثم جاء الذين حاموا حول ضبط الاصول وتدوين القواعد فمزجوا الفن بمسائل علوم البلاغة والمحسنات واكثروا فيما عدا ذلك بالوصاية على تتبع منشئات البلغاء من الكتاب واتوا بجملة

منها و وازنوا بينها لتحصل للمتعلم ملكة يقتدر بها على تمييز الحسن من غيره والشيخ على منوال ما يراه حسنا وفي هذه الطريقة ظهرت افضل كتب الفن واقربها الى الطريقة التعليمية كما فعل ابن الاثير في المثل السائر وسبقه لذلك ابو هلال العسكري في كتاب الصناعتين (توفي سنة ٣٩٥) وعلى وقع خطاهم اقتفى السالكون المطولون كتبهم والمقصرون

وملكة الانشاء تكتسب من جهة المعنى ومن جهة ما يعبر عن المعنى وهو اللفظ والكتابة (١) فالاول ينحصر في معرفة ايجاد المعنى في الفكر وترتيبه . والاستنتاج منه . والثاني يبحث عن حال اللفظ ومناسبته للمعنى مفردا او مركبا وذلك اصول اساليب الكتابة

هذا وللانشاء فضيلة واضحة فانه لم يخل عصر من رجال تمكنوا من سوق غيرهم بعصي آرائهم ففي الحديث « ان من البيان لسحرا » وقد اختار الله تعالى المعجزة لاصحاب اللسان العربي بلاغة القرآن وقديما ما عالج ديموستين الخطيب اليوناني من العناء ليتدرب على الخطابة التي تمكن بها بعد على قهر مليبوس ملك مقدونيا ووالد الاسكندر وسمع امير المؤمنين على ابن ابي طالب رضي الله عنه زياد ابن ابي سفيان وكان يومئذ لا يدعى لابيه يخطب في زمن عمر رضي الله عنه فقال لو كان هذا الفتى قرشيا لساق العرب بعصاه » ولولا مكانة عبد الله ابن المقفع الشهير في الكتابة لما سلم عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس اخو السفاح

(١) اعلم ان مقام الكتابة في فن الانشاء غير مقام القول فقد يحسن في الكتابة ما لا يحسن في الخطابة او في المحادثة والعكس فلا يصح ان يكتب المرء كما يقول ولا العكس

من غدر ابن اخيه ابي جعفر المنصور فان ابن المقفع كتب له على المنصور عهدا لم يترك للمنصور فيه مدخلا للخيانة إلا سده عليه (١)

كيفية الانشاء للمعنى

الانشاء كاسمه احداث معان منسقة ومفرغة في غرض مطلوب فاذا احسن وصلها وجمعها جاء الانشاء كاملا واساس ذلك ثلاثة امور . المعنى الاساسي . وتفصيله . وايضاحه . اما المعنى الاساسي فهو الموضوع الذي يجول في الفكر ويجيش في به الخاطر وهو غرض اجمالي يجب احضاره على اجماله ثم يشرع في بيانه و اقناع السامعين به فهو نظير المطلوب في اصطلاح المناطقة اعني ما يقام عليه البرهان و هو في اصطلاح الكتاب ما تترجم به الرسالة او تعنون به المقالة مثل قولنا العلم اساس العمران . والاتحاد سبب القوة . ولا نريد من اجماله كونه بسيطا وانما نريد انه غير ملحوظ فيه التفريع ابتداء

---

(١) كان ابن المقفع كاتبا لعيسى بن علي أخي عبد الله المذكور و كان عبد الله قد وقعت بينه و بين ابي جعفر المنصور احن هزمه فيها ابو جعفر المنصور ففر الى البصرة متواريا عند اخيه عيسى ثم سال الامان من المنصور فبذل له الامان ناويا الغدر به فسأل عبد الله من ابن المقفع ان يكتب له عهدا وثيقا على المنصور ليمضيه له فكتب له عهدا لم يبق للمنصور به مدخلا الى الغدر إلا سده عليه وابن المقفع هو عبد الله بن داذ جنشنش اصله من خراسان و لما اسلم سمي عبد الله ولقب ابوه بالمقفع لان الحجاج ضربه حتى تقفعت اي تشنجت يده توفي عبد الله سنة ١٣٧ مغتالا في دار امير البصرة المعزول سفيان بن عيينه المهلبي وشهد له الخليل بالعلم والادب

واما تفصيل المعنى فهو التبصر في تقاسيمه وفروعه وتفكيكه باطالة النظر فيه للتنبه الى ما ينحل اليه من الحقائق والادلة والمرغبات او المنفرات

و اما الايضاح فهو شرح تلك المعاني وذكر ادلتها و فروعها ليمكن حينئذ التعبير عنها بوجه سهل التصور للسامعين فاذا حصل ذلك لم يبق إلا كسو تلك المعاني بالالفاظ فتسهل الافاضة في انشاء الموضوع المراد على حد ما قيل « فان و جدت لسانا قائلا فقل »

نقل عن عبد الله ابن المعتز انه قال : البلاغة بثلاثة امور ان تغوص لحظة القلب في اعماق الفكر . وتجمع بين ما غاب و ما حضر . ثم يعود القلب على ما اعمل فيه الفكر فيحكم سياق المعاني ويحسن تنضيدها ثم يبديه بالفاظ رشيقة مع تزيين معارضها واستكمال محاسنها . » واعلم انه قلما يستطيع الكاتب او الخطيب ان يتناول الموضوع من اوله الى نهايته دفعة واحدة فان هو كلف عقله ذلك ارهقه ضجرا ولا سيما عند تشعب الموضوع وكثرة المعاني فيه فيكاد ييأس من المقدرة عليه اذ تلوح له معان كثيرة فيروعه انتشارها و لا يدري كيف يبتدئها و لكنه ان اتبع هاته الطريقة المشروحة ورتب المعاني الاساسية و آخى بين المعاني الفرعية التي هي من نوع واحد و احسن ترتيبها فذلك وقت رفع القلم من الدواة للكتابة او وقت الانتصاب للخطابة لان ثمار الفكر قد اينعت وآن قطافها

مثال للتمرين

كتب ابن الاثير في الزهد في الدنيا ما ياتي : الناس في الدنيا ابناء الساعة الراهنة وكما ان النفوس ليست بقاطنة فالاحوال ليست بقاطنة ولا شبيه لها إلا الاحلام التي يتلاشى خيالها عاجلا وتجعل اليقظة حقها باطلا وما ينبغي حينئذ

ن يفرح بها مقبلة ولا يؤسى عليها مدبرة وكل ما تراه العين منها ثم يذهب فكأنها لم تره وغاية مطلوب الانسان منها ان يعد له في عمره ويملى له في امتداد اكثره اما تعميره فيعترضه المشيب الذي هو عدم في وجود وهو اخو الموت في كل شيء إلا في سكنى اللحود واما ماله فان امسكه فهو عرضة لوارث ياكله او حادث يستأصله وان انفقه كان عليه في الحلال حسابا وفي الحرام عقابا فهذه زهرة الدنيا الناضرة * وهذه عقباها الخاسرة آهـ : فقوله وما ينبغي حينئذ ان يفرح بها مقبلة ولا يؤسى عليها مدبرة هو المعنى الاساسي : وقوله في الدنيا ولا شبيه لها إلا الاحلام الخ الفقرات وقوله وهو اخو الموت في كل شيء الخ الفقرة من قبيل ايضاح المعنى وقوله الناس في الدنيا وقوله وكل ما تراه العين مع بقية الكلام ذلك كله من قبيل تفصيل المعنى وقد خلط ترتيبها خلطا تظهر به مقدرة المتعلم عند تمييز بعضها من بعض بحسب المراتب الثلاثة المذكورة

اساليب الانشاء

للانشاء اساليب متنوعة باختلاف الاغراض والمعني باختلاف اساليب الانشاء اختلاف مستعمل الالفاظ واختلاف كيفية ربط الجمل تبعا لاختلاف الاغراض وذلك امر وراء اختلاف المعاني واختلاف مقتضيات الاحوال المدون لاولها علم اللغة والنحو والصرف ولثانيها علم البلاغة وهو الامر الذي اذا حصل جاء الكلام عربيا وبضياعه تضيع اللهجة العربية مع بقاء المفردات اللغوية

و بقاء قواعد فن البلاغة (١) ولهذا لا تجد مشابهة بين كلام المتكلفين من الادباء و بين كلام العرب ومن يليهم من البلغاء اهل اللسان واحسن قول يفصح عن هذا قول الشيخ عبد القاهر رحمه الله في دلائل الاعجاز « ان النظم هو توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الاغراض و طريق علم ذلك هو عرض الاساليب المختلفة من كلام البلغاء على المتعلمين ليحصل لهم من اختلاف امثلتها صور متنوعة يلوح لاذهانهم منها وقت محاولة الانشاء انموذج فيما يصلح له من الاغراض وهو الذي سميناه فيما مضى بالقوالب غير الجزءية الا ترى ان النبي صلى الله عليه وسلم لما راجعه بعض المسلمين في دية الجنين بقوله « كيف نودي من لا شرب ولا اكل ولا نطق ولا استهل فمثل ذلك بطل قال له على وجه التوبيخ « اسجعا كسجع الكهان) فعاب

---

(١) لان اللغة الفاظ مفردة وجمل مركبة وكيفية نظم الجمل . فاذا عرف الانسان المفردات من علم اللغة والتصريف وعرف التركيب من علم النحو وعرف ما يجب تقديمه وتاخيره وحذفه ونحوه من علم البلاغة استطاع ان ياتي بكلام مفيد كما نقل الجاحظ في البيان ان رجلا يدعى نفيسا قال لغلام الجاحظ - (الناس ويلك انت حياء كلهم اقل) يريد انت اقل حياء من جميع الناس ويلك فهذا عرف المفردات ولم يعرف ترتيب التركيب و يسمى هذا بالتقيد فبمعرفة قواعد النحو و البلاغة يحترز عن هذا و يبقى النظر في نظم الكلام وربط بعض جمله ببعض وهو فن الانشاء وليس في علم البلاغة من قواعد ذلك الا مسائل غير كثيرة كمسائل الفصل والوصل والايجاز والاطناب ومسائل التخلص والاقتضاب وبعض المحسنات المعنوية ومع ذلك فان الاحاطة بقواعد البلاغة لا تفيد وحدها انشاء كلام عربي بليغ الاترى انه قلما وجدنا مشابهة

منه الاسلوب وان كان كلامه عربيا بليغا وقد جادل عتبة ابن ربيعة قريشا حين اجمعوا على ان يعتذروا لوفود العرب عام ظهور دعوة النبي صلى الله عليه وسلم الى الله بالقرآن بان يقولوا هو شعر او كهانة او سحر فقال لهم : « والله ما هو بزمزمة الكاهن ولقد عرفت الشعر ورجزه وقصيده فما هو بشيء من ذلك وما هو بكلام بشر » ففرق بين القرآن وبين غيره باختلاف الاسلوب ومن الغلط ان يقتصر متعلم الانشاء على اسلوب واحد يعكف عليه مثل ان يقتصر على اسلوب مقامات الحريري او رسائل ابن الخطيب او غيرهما فلا يرتسم في ذهنه إلا ذلك حتى اذا اراد ان ينشيء لم يستطع ان يعدو ذلك الاسلوب مع انه لا يحسن في جميع مواقع الانشاء كما انه لا يحسن ان يقتصر على نوع من انواع الانشاء الادبي كالرسائل فقط فان للانشاء انواعا كثيرة ؛

فمن انواعه المراسلة . والخطابة . والمحادثة . والتصنيف . والمقامات . والوصف. وكلها فنون كثيرة ويجيء الانشاء فيها نظما ونثرا ولكل منها لهجة واسلوب يخالف ما لغيره فلا بد من ممارسة طرق البلغاء في هاته الانواع وفنونها ليحصل للممارس ذوق وملكة يستطيع به ان يعرف ما يجب في كل مقام من هاته المقامات بحسب العصور والعوائد (١) فليس ما يحسن للشاعر او الخطيب

بين كلام المولدين وكلام العرب وذلك لقلة حفظ النثر العربي وترى الشعر اشبه بالشعر العربي من النثر بالنثر العربي وما سبب ذلك إلا كثرة ما حفظ من الشعر العربي وقلة ما حفظ من النثر ولولا القرآن لما بقي من يستطيع ان ينشيء انشاء عربيا نثريا غير ان ذلك لا يكفي في استيعاب جميع الاساليب .

(١) لهذا نرى الكتاب والشعراء من اهل العصور الاسلامية الاولى قد ابتدعوا في الانشاء وابتكروا المعاني وفاقوا انشاء العرب الاولين بالرقة وحسن الصفات ونرى من جاء بعدهم يكتبون كلاما حسنا ولكن قلما

يحسن للمؤرخ فلو ان ابا نصر العتبي وهب محاسن انشائه لغير كتاب التاريخ اليميني لما قصرت شهرته عن شهرة الحريري (١) ولكنه غلط في الوضع قال بشر ابن المعتمر ينبغي للمتكلم ان يعرف اقدار المعاني ويوازن بينها وبين اقدار المستمعين وبين اقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعاني واقدار المعاني على اقدار المقامات واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات فان كان خطيبا تجنب الفاظ المتكلمين (علماء الكلام) وان كان واصفا او مجيبا او سائلا كان الاولى به الفاظ المتكلمين اهـ



وجدنا منهم من يشبه انشاؤه الانشاء العربي وذلك لان كتاب العصور الاولى لما اتسعت لديهم دائرة المكاتبات ولم يكن اسلوب المراسلة فاشيا فيما قبل الاسلام تمكنوا لكونهم من العرب ان ينحوه اسلوبا يناسبه ويفارق اسلوب الخطابة والمحادثة مثل ما تراه في كتب الخلفاء الراشدين والامويين وترى مخالفتها لكيفية الكتب التي كانت تصدر من النبي صلى الله عليه وسلم . وكذلك يجب الاقتداء بهم مهما حدث فن جديد فيسن بلغاء الكتاب لذلك الفن اسلوبا يناسبه ويخالف اسلوب غيره من الفنون مع الاحتفاظ على الخصائص العربية وسياتي تفصيل هذا وبيان خصائص كل فن من فنون الانشاء

(١) ابو نصر العتبي محمد بن عبد الجبار الف التاريخ اليميني نسبة الى يمين الدين محمود بن سبكتكين الغزنوي فاتح بلاد الهند

القسم الاول المعنوي [1]

انما ينشيء المنشيء معاني يعبر عنها بالفاظ فمادة الانشاء هو المعنى واللفظ ظرف له فاذا حاول الكاتب حتى ابتكر شريف المعاني اطاعته الالفاظ وجاء انشاؤه متينا واضحا ولا مرما تفاوت البلغاء والشعراء من العرب في الاجادة مع انهم ينطقون بلغة واحدة لا يتفاوتون في العلم بها و بخصائصها وانما تفاوتهم في ابتكار المعاني والنباهة في التعبير عنها وكذلك الامر فيمن بعدهم من المولدين فقد تجد الامام في اللغة لا يستطيع انشاء رسالة ينشئها من هو دونه علما كما قيل ان ابن دريد شاعر العلماء مع ان كثيرا ممن هو دونه اجود منه شعرا بكثير [2] قال الشيخ عبد القاهر في دلائل الاعجاز ان الالفاظ لا تتفاضل من حيث هي الفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة وانما الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما اشبه ذلك اهـ فيدخل في قوله وما اشبه ذلك ما ذكرناه هنا وقد بسط هذا وكرره في مواضع من دلائل الاعجاز وقال التفتازاني في شرح قول المفتاح (واصل الحسن في جميع ذلك ان لا تكون المعاني توابع الالفاظ) ما نصه «ان المعاني اذا تركت على سجيتها طلبت لانفسها الفاظا تليق بها فيحسن اللفظ والمعنى جميعا واذا اتي بالالفاظ متكلفة وجعلت المعاني تابعة لها فات الحسن لفوات ما هو المقصد الاصلي والغرض الاولي بل ربما صارت جهة حسن الكلام جهة قبح لكون الكلام كظاهر مموه على باطن مشوه »

---

(١) قسم ابن الاثير وغيره كتبهم في الانشاء الى قسمين معنوي ولفظي تبعا لتقسيم علماء البديع وهو تقسيم وجيه ولذلك اتبعناه

(٢) كذا قال ابن الاثير في المثل السائر

فيجب على المتعلم الاهتمام اول الامر بايجاد المعاني و البحث عن الحسن منها ومحاولة التعبير عن الحوادث و الصفات ومظاهر المخلوقات فان ذلك اسهل تناولا ثم يرتقى الى التعبير عن الوجدانيات النفسية ثم الى التعبير عن الحقائق الحكمية ونحوها ولا ينبغي للمتعلم ان يجعل جل عنايته باقتباس آثار الكاتبين ونقل معانيهم لان اعتماد ذلك يصيره غير قادر على مجاوزة معاني السالفين نعم يجوز له ذلك في ابتداء التعلم اذا لم يستطع في وقت من الاوقات احضار معنى ان ياخذ رسالة او شعرا فيحوي معانيه دون الفاظه ثم يكلف نفسه التعبير عنه ولا بد ان يكون ذلك مراد ابن الاثير في كتابه الجامع الكبير اذ قال « يجب على المبتدي في هذا الفن ان ياخذ رسالة من الرسائل او قصيدة من الشعر و يقف على معانيها و يتدبر اوائلها واواخرها و يقرر ذلك في قلبه ثم يكلف نفسه عمل مثلها مما هو في معناها و ياخذ تلك الالفاظ و يقيم عوض كل لفظة منها لفظة من عنده تسد مسدها (١) .والنظر في تعيين هاته المواضيع لمدرس فن الانشاء

تعريف المعنى و تقسيمه

عرف السيد الجرجاني المعنى « بانه الصورة الذهنية من حيث تقصد من اللفظ فهما او افهاما » وفوائد القيود ظاهرة ثم ان المعنى ينقسم الى بسيط ومكيف فالبسيط هو الخالي عن التحسين ويسمى الخاطر سواء كان مشهورا نحو. العلم نافع. ام كان عزيزا نحو. الصمت حكمة. والجدة عون على المروءة . و المكيف هو الذي زيد فيه تنميق من خصوصيات الكلام لافادة محاسن للمعنى وتقرير له

(١) سياتي ان هذه الطريقة نافعة في الارتياض و التمرن و ما حكي عن القاضي الفاضل هنالك

كالاستعارة في مثل. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . والاحسان سلاح النصر . وكذلك التقديم لافادة الحصر و نحو ذلك و قد يسمى بالشعور ما كان دقيقا خفيا كالمعاني الشعرية

صفات المعنى

للمعنى ثلاث صفات لحسنه يجب توخيها وهي الوضوح و السداد والشرف

اما الوضوح فهو سهولة ماخذه من قول صاحبه بان يخلو عن اللبس وعن التعقيد المعنوي وعن الكنايات الخفية وقد تكفل ببيانها علم البلاغة إلا اذا كان في مقام يراد فيه الاخفاء او التشكيك فيجوز من اللبس والكناية ما هو خفيف و الاحسن أن يكون المعنى المطلوب اظهر من الآخر فمن هذا قول المتنبي في كافور

وما طربي لما رايتك بدعة * لقد كنت ارجو ان اراك فاطرب

قال ابو الفتح ابن جني قرأت على ابي الطيب ديوانه الى ان وصلت الى هذا البيت فقلت له يا ابا الطيب ما زدت على ان جعلته ابا رنة فضحك لقولي وكذلك في مقام المزح او الاستخفاف مثل ما ذكر عن اياس القاضي مع الذي قال له اين القاضي فقال بينك و بين الحائط الى ان قال له اقض بيننا قال قد فعلت قال على من قال على ابن اخت خالتك . وقال النبي صلى الله عليه وسلم للذي تاول الخيط الابيض و الاسود على حقيقتهما انك لعريض القفا . ومن هذا القبيل الالغاز لاختبار تنبه السامع او للاخفاء عن الغير كما حكي ان اعرابيا اوصى الى قومه ينذرهم عدوهم و كان اسير ابيد العدوان العوسج قد اورق واشتكت النساء واتركوا ناقتي الحمراء فلطالما ركبتموها و اركبوا جملي الاسود واسألوا الحارث

عن خبري (١) قال ابن الاثير في المثل ان الكاتب او الشاعر ينظر الى الحال الحاضرة ثم يستنبط لها ما يناسبها من المعاني .

و اما السداد فهو الموافقة للواقع و المطابقة لمقتضى الحال من غير زيادة كقول لبيد.

الا كل شيء ما خلا الله باطل * وكل نعيم لا محالة زائل

وقول الآخر

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو في ثياب صديق

و قد يخرج عن ذلك الى المبالغة ان اقتضاها الحال فيقبل منها ما اقتصد فيه كما تقرر في البيان.

و اما الشرف فهو ان لا يكون المعنى سخيفا و لا مشتملا على فضول سواء كان سابقا للذهن ام مبتكرا و كلاهما يجتنب اذا كان سخيفا مبتذلا ومن المبتكر السخيف قول المعري

فيا وطني ان فاتني بك سابق * من الدهر فلينعم لساكنك البال
فان استطع في الحشر آتك زائرا * وهيهات لي يوم القيامة اشغال

و قوله في مرثيه لوالد الشريف الرضي

ان زاره الموتى كساهم في البلى * اكفان ابلج مكرم الاضياف
والله ان يخلع عليهم حلة * يبعث اليه بمثلها اضعاف

و من غير المبتكر وهو سخيف ما خطب به و ال من ولاة اليمامة يعظ الناس فقال «ان الله لا يقار عباده على المعاصي و قد اهلك الله امة عظيمة في ناقة ما كانت ساوي مائتي درهم وفي رواية قيمتها مائتا درهم» فلقبوه مقوم الناقة وقد رأيت

---

(١) اراد من العوسج الذي هو شجر ذو شوك ان الناس اخذت السلاح لقتال قومه ومعنى اشتكت النساء اتخذت الشكوات لمخض اللبن . واراد بالناقة الحمراء الارض السهلة و بالجمل الجبل

نسبة هذه الخطبة لعبيد الله ابن الزبير حين كان والي المدينة و ان ذلك لما بلغ اخاه عبد الله عزله و اولى عوضه مصعبا. وقد يعرض للمعنى الشريف سخافة اذا وقع في غير موقعه كما قال ابو فراس

ولكنني والحمد لله حازم * اعز اذا ذلت لهن رقاب

فان ذكر حمد الله على حقيقته في مقام غرام و فخر لا يخلو من سماجة فاين هو من قول الآخر

وقد زعمت اني نذرت لها دمي * ومالي بحمد الله لحم ولا دم

حيث ورد في مقام الشكاية و حسن بكونه مستعملا مجازا على طريقه التمليح

طرق اخذ المعنى

هي ثلاثة . الابتكار . و البداهة . والشهرة اما الابتكار فهو استنباط المعنى بفكر ونظر وهذا الاستنباط اما ان يعرض للمعنى من اصله نحو تشبيه ابن نباته اجتماع الفرح والاسف و جريان دمع مع ابتسام بوابل غيث في وقت الضحى. واما ان يكون بالاخذ من الغير مع حسن التصرف نحو قوله

الناس للموت كخيل الطراد * فالسابق السابق فيها الجواد

اخذا من حديث انما يعجل الله بخياركم. او بتركيب شيئين معروفين والجمع بينهما مثل قول من قال

لا ادخل البحر اني * اخاف منه المعاطب

طين انا وهو ماء * والطين في الماء ذائب

فقد أخذه من كون الانسان طينا و البحر ماء و ذلك واضح مشهور ولكنه تنبه الى الجمع بينهما و ذكر أثر اجتماعهما فاحسن الاعتذار و يسمى المعنى الحاصل بالابتكار عزيزا و غريبا.

واما البداهة فهي اخذ المعنى الواضح للعقل من وجدان و مشاهدة و لا فضل فيه إلا لحسن التعبير و نباهة المعنى في احاطته بملاحظةما تجب ملاحظته و قد يبلغ المعنى من دقة الوجدان ما يلحقه بالمعاني المبتكرة و كل هذا يظهر في الشعر الغرامي والتوصيفي و حكايات الاحوال ومثاله قول من اعتذر عن فراره من الزحف

الا لا تلمني ان فررت فانني ✲ اخاف على فخارتي ان تحطما
فلو انني في السوق ابتاع مثلها ✲ وحقك ما باليت ان اتقدما

و قول الصاحب ابن عباد من رسالة في وصف منهزمين «طاروا واقين بظهورهم صدورهم وباصلابهم نحورهم» فانه لم يزد على حسن التعبير عن الحالة المشاهدة و قول ابى نواس في وصف كؤس ذهب بها تصاوير

تدار علينا الراح في عسجدية ❋ حبتها بانواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها ❋ مهى ثورتها بالقسي الفوارس

و يسمى المعنى الحاصل بذلك بسيطا اذ الفضل كما قلنا للتعبير

واما الشهرة فهي عبارة عن شيوع المعنى حتى لا يكاد يتكلف المتكلم في استحضاره شيئا من عمل الفكر و يسمى المعنى بالمبتذل و يدعو البليغ اليه اما تعينه واما لكون المقام مقامه كخطاب العوام والصغار و ينبغي ان تجنب عنه مقامات الابداع والصنعة ولذلك نعيب على ابن الخطيب رحمه الله قوله في وصيته البديعة «والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل و شرط من شروطها محصل فاستوفوها والاعضاء نظفوها و مياهها بغير اوصافها الحميدة فلا تصفوها والحجول والغرفا طيلوها الخ.» فانه ما كان مترقبا من مثل ذلك الوزير العالم ان يضمن وصية ابنائه الغر الانجاب ما يتعلمه الصبيان في ايام الكتاب خصوصا في اضيق اوقات الكلام و احوجه الى الملا بالمهام . ومن العجائب ان ابن الاثير ذكر في المثل السائر فصلا لنفسه من رسالة قال فيها «واقبلت ربارب الكناس في مخضر اللباس فقيل انما اخترن

الخضرة من الالوان ليصح تشبيههن بالاغصان» فعد هذا معنى مبتدعا واعجب به مع انه معنى مبتذل شائع

ترتيب المعاني وتنسيقها وتهذيبها

اعلم انه لا سبيل الى الاستنتاج إلا الترتيب ولا يحصل ترتيب المعاني إلا بتقريرها في الذهن ابتداء ثم رعي التناسب بينها بتفكيكها وتقسيمها و الموازنة بينها. والخطيب احوج الى هذا من الكاتب كما ياتي في الخطابة لانه يقول ولا يكتب فلا يعينه إلا الاعتماد على الترتيب الطبيعي للكلام حتى يعتاد ذهنه ذلك ويصير له دربة وسجية كي لا يرتج عليه ان لم يقرر المعاني في ذهنه ولئلا يلعن بعض كلامه بعضا ان لم يرتبها و يقسمها و يشهد. لهذا ما نقل ان النبي صلى عليه و سلم قال لعبد الله ابن رواحه كيف تقول الشعر فقال انظر ثم اقول.

و اما التناسب بين المعاني ففيه يبحث باب الفصل و الوصل من علم البلاغة و كذلك المطابقة المبحوث عنها في البديع و المزاوجة ايضا.

واما التفكيك و التقسيم فهما متشابهان إلا ان التفكيك عبارة عن استقلال كل معنى بنفسه وعدم تراكم المعاني المسمى بالمعاظلة المعدود قديما من عيوب الكلام و قد مدح عمر رضي الله عنه زهيرا بانه لا يعاظل بين الكلامين وذلك ان المتكلم قد يخطر بباله المعنيان فصاعدا فيحاول ان يمزجها جميعا و ينزل السامع منزلة المطلع على ضميره كما قال ابو تمام

سبق المشيب اليه حتى ابتزه ✲ وطن النها من مفرق وقذال

اراد ان السيف سبق المشيب الى راس القرن فافتك منه الراس و مراده انهم لو لم تقتلوا لشابوا من هول الحرب إلا ان هذا لا يدل عليه لفظه ولكنه شيء قدره في نفسه وتراكم بعضه على بعض فعبر عن الصورة التي حصلت في ذهنه دفعة واحدة

واما التقسيم فهو جمع طائفة من المعاني في شق من الكلام لارتباط لها ببعضها واتفاق في نوع او غاية او نحوها وقد نقل عن بعض الحكماء انه قال. الخطابة صحة التقسيم. واكمله ما استوعب الاقسام كلها كقول علي رضي الله عنه الحق ثقيل مريء و الباطل خفيف وبيء. وانت رجل ان صدقت سخطت. وان كذبت رضيت. لانه اذا شذت بعض الاقسام عد الكلام معيبا كما قيل ان ابن ميادة هرب احد عماله من صارفه فكتب ابن ميادة اليه انك لا تخلو في هروبك من صارفك ان تكون قدمت اليه اساءة خفته معها او خشيت في عملك خيانة فلا بد من مطالبتك فوقع العامل تحته « في الاقسام ما لا يدخل فيما ذكرته و هو اني خفت. من ظلمه اياي بالبعد عنك و تكثيره علي الباطل عندك فوجدت الهرب الى حيث يمكنني فيه دفع ما يتحرجه انفى للظنة عني و بعدى عمن لا يؤمن ظلمه اولى بالاحتياط لنفسي.

و اما الموازنة بين المعاني فهي من ضروب النقد المعنوي وانما تعرض بين المعنيين المتشابهين فصاعدا عند قصد التخيير لما يناسب منها وكذلك يعرض بين طريقي اداء المعنى الواحد فمن الاول ما يعرض بين تشبيه وحيد عصره فضلا وعلما بالمسك من بين الدماء كما صنع ابو الطيب. او بالذهب من المعادن كما ورد في الحديث او بالبيض من الدماء كما قيل في انتقاد بيت ابي الطيب (١) وطريق الموازنة في هذا النظر الى انزه الاشياء واقربها لمحاسن الموصوف والثاني كالموازنة بين اداء المعنى بالحقيقة او بالمجاز و بالتصريح او بالكناية مثلا فقد ذكر

---

(١) قال ابو الطيب (فان تفق الانام و انت منهم * فان المسك بعض دم الغزال) فانتقدت القصيدة بان قوله قبل « كانك مستقيم في محال» غلط والصواب كانك مستقيم في اعوجاج فقيل ان ذلك يفسد عليه تشبيهه بالمسك من دم الغزال فاجيب بانه يتمكن من ان يقول بان البيض بعض دم الدجاج و هو كما ترى في الابتدال

الاصوليون والبيانيون مقامات العدول عن الحقيقة الى المجاز الا ترى ان المجاز قد يقبح في مقام الجد والحزن مثلا مثل ما ترى في قول بعضهم

دمعة امطرتها عيني فاعشب لها قلبي

اذ لا تناسب بين امتلاء القلب حزنا و بين اعشيشاب الارض بل هو خلاف المقصود اقرب وكذا قول الزمخشري في رثاء شيخه ابي مضر

وقائلة ما هاته الدرر التي * تساقط من عينيك سمطين سمطين

فان المقام ليس مقام تشبيه دمع الحزن بالدرر و ان كان قصده ان يصل بذلك الى تشبيه فوائد شيخه لكنه جاء بافتتاح تنكره النفس خلاف قول الآخر

فامطرت لؤلؤا من نرجس وسقت * وردا وعضت على العناب بالبرد

وعلى هذا قياس غيره

واما تنسيق المعاني و تهذيبها فهو تنقيحها عن كل ما يعلق بها مما يكون غريبا عنها ولا مناسبة له بها من خطأ او صواب و اظهر مواقع الحاجة اليه مقامات الاستطراد و يسمى الاعتراض فان المتكلم او الكاتب او الخطيب قد تدعوه الى الاستطراد دواع كثيرة ليلقي من المعاني التي يرى الداعي لالقائها موجودا ويخشى ان لا يجد لها مناسبة غير ذكرها عند نظيرها وذلك كاستطراد الدعاء في طوالع الرسائل او استطراد قصة او حادثة او شعر في اثناء رسالة او خطبة و تلك سنة قديمة شائعة بين الكتاب والخطباء فيجب ان يكون ذلك الاستطراد شديد التعلق بالموضوع اما لثناء او بيان او تحسين او اظهارا مكانة او تنظيره او تذكير بسابق او نحو ذلك فان عري الاستطراد عن شيء من العلاقات المقبولة الواضحة

صار اشبه بالهذيان مثل ما وقع لابي العلا. المعري في نثر في رسالة كتب بها الى قاض شافعي « كتابي اطال الله بقاء سيدي القاضى شافي العي. وخليفة الشافعي. ما جاز خيار مجلس. ووجب حجر على مفلس. الخ » فان هذا الظرف الذي استطرده لدعائه لا مناسبة بينه و بين الموضوع إلا انه ذكر شيئا من علائق القضاة فرماه جزافا اذ ليس ذلك باولى من ان يقول ما ردت شهادة زنديق وقبل الشاهدان في التطليق

اخذ النتائج من المعانى

كما ان المنشيء قد يستطرد الشيء لمناسبة وتعلق بالغرض كذلك يلزمه سوق معاني غير مقصودة بالذات و لكن المقصود هو ما تعطيه من النتيجة وتسمى حينئذ بالمقدمات و بيان هذا ياتي عند الكلام على الخطابة لكثرة وقوعه فيها وانما تعرضنا له ها هنا لانه قد يقع في غيرها بان لا يفضي المتكلم الى غرضه من اول وهلة خشية نفور النفس او عدم اتضاح المقصود وعندي ان هذا من جملة ما يفرق به بين مقامات الاطناب والايجاز ومنه ما يسمى في فن البديع بحسن التعليل وبحسن الاعتذار و من الاستنتاج ما وقع في كتاب كتب به الجاحظ الى محمد بن عبيد الملك يستعطفه و يطلب عفوه عن زلة قال « اما بعد فان كنت اجترات عليك فلم اجترىء إلا لان دوام تغافلك عني شبيه بالاهمال. الذي يورث الاغفال. و العفو المتتابع يؤمن من المكافاة فان كنت لا تهب عقابي لخدمة فهبه لاياديك عندي وإلا تفعل ذلك فعد الى حسن العادة و إلا فافعل ذلك لحسن الاحدوثة والافأت ما انت اهله من العفو دون ما انا اهله من استحقاق العقوبة الخ ». وقد تقدم النتيجة على مقدماتها فيؤتى بها حينئذ كالادلة و ذلك اذا كان المخاطب غير متوقع نفوره اما لانصافه او لطاعته للمتكلم او نحو ذلك كما تراه في كتاب كتب به ابو بكر الخوارزمي لتلميذه يؤنبه على المكابرة و هو قوله « بلغني انك ناظرت فلما

توجهت عليك الحجة كابرت ولما وقع نير الحق على عنقك ضجرت وكنت احسب انك اعرف بالحق من ان تعقه. واهيب لحجاب العدل والانصاف من ان تشقه. كانك لم تعلم ان لسان الضجر ناطق بالعجز وان وجه الظلم مبرقع بالقبح وانك اذا استدركت على نقد الصيارفة. وتتبعت غلط الحكماء والفلاسفة. فقد طرقت الى عيبك لعائبك ونصرت عدوك على صاحبك وقد عجبت من حسن ظنك بك وانت انسان» فحسن في هذا المقام افضاؤه الى الغرض ثم اتيانه بما من شانه ان يكون مقدمة بمنزلة الدليل كما يظهر بالتأمل

مقامات الكلام

قد عرفت من علم البلاغة ان مقامات الكلام متفاوتة وليس هذا جل غرضنا هنا لاننا لا نحب ان ننقل علما الى آخر وانما نبحث هنا عن مقامات الكلام التي لها مزيد اختصاص باختلاف اساليب الانشاء وملاك ذلك يرجع الى نباهة المتكلم في ترتيب اداء المعنى بحسب حال المخاطب وعلاقته بالواقع فان مسألة ضروب التراكيب المذكورة في البلاغة لا ينظر فيها إلا الى حال المخاطب كما ان احوال التقديم والتاخير والحذف والقصر والايجاز ننظر فيها الى حال المخاطب مع علاقته بالخارج ويشبه ان يكون حال المخاطب وارتباطه بالخارج مرجع اختلاف مقامات الكلام كلها وذلك ينضبط فيما يظهر لنا من اربع جهات ترتب المعاني المدلولة. وطرق الاحتجاج. وطرق الدلالة. وكيفية المعنى. من جزالة اورقة او سهولة. فاما ترتيب المدلولات فالاصل فيه ان يكون على حسب حصولها وتفرع بعضها عن بعض فان كان الكلام خبرا فالنظر الى الحصول في الخارج فيحكى على ترتيبه الطبيعي وان كان انشاء فالنظر الى ترتيبه بحسب حصول مدلوله عند الامتثال وقد يتعين هذا كما في حكاية الاخبار المحزنة فان حكايتها على ترتيبها الطبيعي يهيء النفس لتلقيها كما يهيئها لذلك حصولها في الواقع تدريجا فانك لو رمت الاخبار بوفاة من تروع المخاطب وفاته لرأيت ان حكاية مرضه

واطواره ثم وقوع الياس من شفايه ثم الخبر بموته اهون في النفس مما لو فوجئت بالاخبار بموته وقد يخالف مقتضى الظاهر كتقديم ما شانه التاخير لغرض مثل تعجيل المسرة او قطع نزاع المنازع قبل ان يلج في الخصومة فيكابر ولا يرجع الى الحق او للتنبيه على المقصود مثل الافتتاح بدعاء مناسب او نحوه و يسمي براعة الاستهلال كقول بعض الكتاب التونسيين يخاطب رئيس ديوان الانشاء في الدولة الصادقية متشكيا من بعض اهل الشوكة « سيدي نفوسنا تفديك و الله تعلى من سلطة اهل الوظائف بدون استحقاق يقيك » و قول الحريري في جواب الذي جاوب ابا زيد السروجي حين وقفه موقف الزائر المسترفد

وحرمة الشيخ الذي سن القرى * واسس المحجوج في ام القرى

يريد ابراهيم عليه السلام

وقد بين في علم المعاني كثير من المناسبات الداعية الى التقديم و التاخير في اجزاء الجملة فلا نطيل بها هنا و لكن يجب ان يعلم السبب في تقديم ما حقه التاخير وعكسه من جمل الكلام وقد تتبعت ذلك حسب الجهد فرأيت ان ملاك ذلك اما استبقاء الذهن لما هو اولى بالايعاء وتهيئة السمع لما هو اجدر بالاصغاء واما الاستراحة من غرض خفيف يقدم ليفضى الى غرض مهم يؤخر . واما لان احد الغرضين وان كان حقه التقديم او عكسه لكنه كان من المعاني المتولدة او المستطردة واتصل بغيره مما قدم او اخر اتصالا يمنع من التفرقة بينها و بينه لانها ان فرقت تشتت الذهن في استيعابها وتحير في جمعها و ترتيبها . فمثال الاول ما ذكر في علم المعاني من التشويق الحاصل من تقديم الخبر في نحو كلمتان حبيبتان الى الرحمان و نحو ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ومثال الثاني قول علي رضي الله عنه في خطبة له حين بلغه استيلاء اصحاب الشام على سائر البلاد و تثاقل اصحابه عن القتال

« ما هي إلا الكوفة اقبضها وابسطها ان لم تكوني إلا انت تهب اعاصيرك (١) فقبحك الله انبئت بسرا (٢) قد اطلع اليمن واني والله لا ظن ان هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم و تفرقكم عن حقكم و بمعصيتكم امامكم في الحق وطاعتهم امامهم في الباطل و بادائهم الامانة الى صاحبهم وخيانتكم و بصلاحهم في بلادهم وفسادكم الخ. » فتقديم قوله ما هي إلا الكوفة وان كان حقه التاخير لانه متفرع عن حكاية ما بلغه اعداؤه بخصالهم وما ملكوه من البلاد ولكنه قدمه للتفرغ منه الى الانحاء على جنده و ذكر مثالبهم و اسباب انخذالهم. و مثال الثالث كثير من ذلك قوله رضي الله عنه في خطبة حين دخل جندمعاوية رضي الله عنه الانبار وقتلوا عاملها حسان «اما بعدفان الجهاد باب من ابواب الجنة فتحه الله لخاصة اوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة فمن تركه رغبة عنه البسه الله ثوب الذل وشمله البلاء و ديث (٣) بالصغار وضرب على قلبه واديل الحق منه بتضييع الجهاد وسيم الخسف (٤) ومنع النصف (٥) الاواني قد دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلا و نهارا وسرا و اعلانا و قلت لكم اغزوهم قبل ان يغزوكم فوالله ما غزي قوم في عقر (٦) دارهم الا ذلوا فتواكلتم حتى شنت عليكم الغارات وملكت عليكم الاوطان. هذا اخو غامد (٧) قد وردت

---

(١) الاعاصير جمع اعصار وهي ريح تمتد من الارض نحو السماء كالعمود وهي هنا تمثيل لما في الكوفة من الفتن واختلاف الاراء (٢) بسر هو ابن ابي ارطاة من بني عامر من قواد جيش معاوية رضي الله عنه و كان بسر ظالما قاسيا

(٣) ديث بالبناء للمفعول من ديثه اي ذلله (٤) اي اعطي الذل والكرب (٥) النصف بكسر النون و سكون الصاد العدل (٦) العقر بالضم الوسط (٧) اخو غامد هو سفيان بن عوف من بني غامد قبيلة من ازدشنودة سكان اليمن بعثه معاوية لشن الغارة على اطراف العراق والانبار بلدة بالشاطي الشرقي للفرات مقابلة هيت على الشاطي الغربي. وهذه الخطبة الثانية ذكرها المبرد في كامله وعلق عليها تعليقا

خيله الانبار و قتل حسان بن حسان (ا) الخ » فكان الظاهر ان يبدأ بذكر دخول خليل اخي غامد للانبار و يبنى عليه بيان سببه من تواكلهم وتباطيهم وان ذلك شان كل متواكل لكنه اخره حين دعت المناسبة لتقديم ذكر تواكلهم وانه مسبب عن ذلهم المسبب عن ترك الجهاد المأمور به فكان لذلك تعلق بطالع الخطبة

واما الانشاء فمقتضى الظاهر ترتيب المعاني على حسب حصوله كما قلنا وقد يعدل عن ذلك لاغراض. و اما ترتيب الخبر مع الانشاء فالاصل فيه تقديم المقدمات على النتائج ولا يعكس إلا لغرض مثل قول عيسى بن طلحة حين دخل على عروة ابن الزبير لما قطعت رجله « ما كنا نعدك للصراع والحمد لله الذي ابقى لنا اكثرك ابقى لنا سمعك و بصرك ولسانك وعقلك واحدى رجليك » فقال عروة والله ما عزاني احد بمثل ما عزيتني به فلو قدم قوله « الحمد لله الذي ابقى لنا اكثرك» لكان يشبه الشماتة انه يحمد الله له على قطع رجله فلا تهتدي النفس الى مراده إلا حين يقول له ما اعددناك للصراع لان للنفوس عند الخطاب جفلات اذا هي نفرت فربما ضلت عن طريق الحق.

واما الجزالة و السهولة والرقة فهي مراتب للمعاني المستفادة من الكلام فالجزالة شدة في المعنى تقرب من حد الارهاب او تبلغه بحيث تؤذن بعدم مبالاة المتكلم باستعطاف المخاطب ولا بملاينته ولها مواقع. الغضب والحماسة والوعظ والعتاب و نحوها. واما السهولة فهي دونها و هي لين المعنى وتجريده من شوائب الارهاب واشتماله على ايضاح بساطة حال المتكلم وملاينة المخاطب ولها مواقع. الامور العادية والعلوم و المخاطبات بين الاكفاء . واما الرقة فهي غاية ايضاح لطيف الوجدان من المتكلم او التلطف مع السامع و لها مواقع. الشوق و الرثاء والاعتذار و التأديب . و بهذا يتضح ان ليس لشيء من هذه الاوصاف مدخل في صفة

(١) قال المبرد حسان بن حسان عامل علي و في نهج البلاغة زيادة لفظ البكري

اللفظ كما قد يتوهم . ومن الواجب مواخاة المعاني في الغرض الواحد في الجزالة او الرقة ولهذا عيب على جميل قوله

الا ايها النوام و يحكم هبوا * اسائلكم هل يقتل الرجل الحب

فقد حكي عن بعض اهل الادب والعربية انه قال فيه هذا بيت اوله اعرابي في شملته وآخره مخنث من مخنثي العقيق يتفكك . فاذا وقع الانتقال من غرض الى غرض ساغ اختلاف الوصف وانظر بلاغة قوله تعلى ولا ياتل اولوا الفضل منكم والسعة الى قوله غفور رحيم فهو من السهولة ثم قال ان الذين يرمون المحصنات الغافلات فهي من الجزالة وقد اختلف ذلك ايضا في قول ابي فراس حين اسره الروم يستنهض سيف الدولة لفدائه منهم و تخلل من غرض الى غرض ثم رجع فاجاد في ذلك

(رقة) دعوتك للجفن القريح المسهد * لدي وللنوم الطريد المشرد
(جزالة) وما ذاك بخلا بالحياة وانها * لاول مبذول لاول مجتدي
(جزالة) ولكنني اختار موت بني ابي * على سروات الخيل غير موسد
(رقة) وتابى وآبى ان اموت موسدا * بايدي النصارى موت اكبد اكمد

ولنمثل لما شمل السهولة والجزالة بكلام شيوخ بني اسد مع امرىء القيس يسألونه العفو عن دم ابيه فتكلم قبيصة بن نعيم الاسدي فقال « انك في المحل والقدر من المعرفة بتصرف الدهر ما تحدثه ايامه وتنتقل به احواله بحيث لا تحتاج الى تذكير من واعظ ولا تبصير من مجرب ولك من سؤدد منصبك وشرف اعراقك (١) وكرم اصلك في العرب محتد (٢) يحتمل ما حمل عليه من اقالة العثرة ورجوع عن الهفوة ولا تتجاوز الهمم الى غاية إلا رجعت اليك فوجدت عندك من فضيلة الراي وبصيرة الفهم وكرم الصفح ما يطول رغباتها ويستغرق طلباتها (٣)

---

(١) الاعراق بفتح الهمزة جمع عرق وهو اصل الشيء يريد كرم الاصول
(٢) المحتد بفتح الميم وكسر التاء الاصل والطبع (٣) الطلبات بكسر الطاء جمع طلبة كذلك وهي اسم مصدر طالبه مطالبة

و قد كان الذي كان من الخطب الجليل الذي عمت رزيته نزارا و اليمن ولم تخصص بذلك كندة دونتا للشرف البارع كان لحجر و لو كان يفدى هالك بالانفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا بها على مثله و لكنه مضى به سبيل لا يرجع اخراه على اولاه و لا يلحق اقصاه ادناه فاحمد الحالات في ذلك ان تعرف الواجب عليك في احدى خلال ثلاث اما ان اخترت من بني اسد اشرفها بيتا واعلاها في بناء المكرمات صوتا فقدناه اليك بنسعه (١) تذهب مع شفرات حسامك بباقي قصرته (٢) فنقول رجل امتحن بها لك عزيز فلم يستل سخيمته إلا بمكنته من الانتقام (٣) او فداء بما يروح على بني اسد من نعمها فهي الوف تجاوز الخمسة فكان ذلك فداء رجعت به القضب (٤) الى اجفانها لم ترددها بسليط (٥) الاحن على النزاء (٦) واما وادعتنا الى ان تضع الحوامل فتسدل الازر و تعقد الخمر فوق الرأيات فأجابهم امرؤ القيس بقوله لقد علمت العرب انه لا كفؤ لحجر في دم واني لن اعتاض عنه

---

(١) النسع بكسر النون سير ينسج عريضا على هيئة اعنة النعال تشد به الرحال (٢) القصرة بالتحريك اصل العنق (٣) السخيمة الحقد و الغضب والظاهر انه اراد إن الرجل لم يغضب و لم يدافع وقوله إلا بمكنته تاكيد بما يشبه الضد وعليه فالسخيمة والمكنة مضافان للفاعل و يصح ان يكون المراد بالرجل هو امرؤ القيس اي لم يذهب غيضه إلا بتمكينه من الانتقام فالمكنة مضافة للمفعول (٤) القضب جمع قضيب وهو السيف اللطيف (٥) سليط الاحن الحقود (٦) النزاء بالضم الوثوب

جملا ولا ناقة فاكتسب به سبة الابد و فت العضد. واما النظرة فقد اوجبتها الاجنة في بطون امهاتها و لن اكون لعطبها سببا و ستعرفون طلايع كندة من بعد ذلك تحمل في القلوب حنقا (١) وفوق الاسنة علقا اتقيمون ام تنصرفون قالوا بل تنصرف باسوإ الاختيار واما مثال الرقة فيوجد كثيرا في النظم والنثر وهي في النظم اكثر ومن جيد ما اشتمل عليها في النثر قول الوزير ابي المطرف ابن الدباغ الاندلسي من رسالة « طلع علينا هذا اليوم فكاد يمطر من الغضارة صحوه. ويقبس من الانارة جوّه. ويحيي الرميم اعتداله. ويصبي الحليم جماله. فلفتنا زهرته. وضمتنا بهجته و نضرته. في روضة ارضعتها السماء شآبيبها. ونشرت عليها كواكبها. ووفد عليها النعمان بشقيقه. واحتل فيها الهند بخلوقه. وبكر اليها بابل برحيقه. فالجمال يثني بحسنه طرفه. والنسيم يهزّ لانفاسه عطفه. وتمنينا ان يتبلج صبحك من خلال فروجه. وتحل شمسك في منازل بروجه. فيطلع علينا الانس بطلوعك. وتهديه بوقوعك. ولن نعدم نورا يحكي شمائلك طيبا و بهجة. وراحا تخالها خلالك صفاء ورقة. و الحانا تثير اشجان الصب. وتبعث اطراب القلب. و ندى من ترتاح اليهم الشمول. و تتعطر بارجهم القبول. ويحسد الصبح عليهم الاصيل. و يقصر بمجالستهم الليل الطويل.

ثم ان للكلام مقامات متنوعة منها مقام تحقيق ومنها مقام مسامحة ففي الاول يؤتى بالبرهان و الحكمة والجد. وفي الثاني يؤتى بالخطابة والشعر و التمليح والمزح. ومن المقامات مقام تبيين و مقام تنميق. ففي الاول الحقيقة والتصريح واللفظ المتعارف. وفي الثاني المجاز والكناية و التعريض و التمليح والتوجيه والابهام و الخصوصي من الالفاظ. و باعتبار آخر الى مقام اقتصاد و مقام افراط ففي الاول حكاية الواقع. وفي الثاني المبالغة وفروعها. و باعتبار آخر الى مقام اطناب ومقام ايجاز لضيق المجال او المبادرة خشية الفوات فان التطويل قد يشتت الذهن كقول ابي العاص الثقفي لقومه

---

(١) الحنق الغضب الشديد

ثقيف حين هموا بالارتداد مع من ارتد من العرب « يا قوم كنتم آخر العرب اسلاما فلا تكونوا اولهم ارتدادا» فصدهم بذلك عن همهم الذي لو سلكوه لعسر انسلالهم منه او لقصد الوعي مثل مقام الوصاية مثل ما كتب بديع الزمان لابن اخته « انت ابني ما دمت والعلم شانك * والمدرسة مكانك * و المحبرة حليفك * والدفتر اليفك * فان قصرت و لا اخالك * فغيري خالك * والسلام. ولجميع هاته المقامات خصوصيات يطول بنا بيانها

انتهى القسم المعنوي

القسم الثاني اللفظي

ان للفظ حظا كبيرا في الانشاء فان بحسنه يظهر رونق الانشاء و يترقرق ماؤه و انك لترى المعنى الشريف اذا لم يمنح من الالفاظ ما يناسبه اصبح لفظه له قبرا ولم يطرق لسامعه فكرا و بالعكس قد تغطي الالفاظ الحسنة في حال تركيبها بسائط المعاني و مبتذلها فان الشاعر او الكاتب او الخطيب قد يضطر الى ان يذكر من المعاني ما ليس له كبير اهمية اما لكونه على قدر افهام مخاطبيه. واما لكون ذلك المعنى لا يقبل تنميقا فيلزمه حينئذ ان يكسو المعنى من حلية الالفاظ ما ينبه مقداره و يعلي مناره و ترى هذا في كثير من الشعر التوصيفي كما قلنا فيما تقدم قال الجاحظ « ان المعاني اذا كسيت الالفاظ الكريمة والبست الاوصاف الرفيعة تحولت في العيون عن مقادير صورها ولهذا قال النبي صلى الله عليه و سلم ان من البيان لسحرا » اهـ والى هذا الحال من المعنى واللفظ [١] يشير قول قدامة [٢] وعبد القاهر في مواضع

(١) قولي والى هذا الحال من المعنى واللفظ يعني ان من فضل جانب اللفظ على جانب المعنى فانما نظر الى حال المعاني البسيطة اذا كسيت الالفاظ الحسنة والى حال المعاني الجليلة اذ عبر عنها بالفاظ غير حسنة (٢) قدامة ابن جعفر الكاتب البليغ ابو الوليد البغدادي المتوفى في اوائل المائة الرابعة الف كتاب سر البلاغة المعروف بنقد الشعر

« ان المعاني مطروحة بالطريق يستوي في تناولها القروي و البدوي و يهديه اليها طبعه و بصره وانما المزية للالفاظ » وقول ابن رشيق القيرواني رحمه الله تعلى » (٣) سمعت بعض الحذاق يقول « قال العلماء اللفظ اغلى ثمنا فان المعاني موجودة في طباع الناس يستوي فيها العالم والجاهل » اهـ . و لنضرب لك مثلا ما ذكره ايمة الادب ان ابا تمام كان كثيراً ما ياخذ معنى العامة والسوقة فيجيد نسجه ويجيء غريبا مبتدعا من ذلك انه سمع سائلا يسأل فيقول « اجعلوا بياض عطاياكم في سواد مطالبنا » فنظمه بقوله

واحسن من نور يفتحه الصبا * بياض العطايا في سواد المطالب

والنظر في احوال اللفظ ينحصر في احوال الالفاظ المفردة و احوال الالفاظ في حال تركيبها والتدرب على كيفية التعبير

احوال الالفاظ المفردة

وهي الفصاحة . و الصراحة . والعزة . و الرشاقة

اما الفصاحة فهي وصف الكلمة وهي خلوصها مما يكدرها و يثقلها في السمع و يبعدها عن سلامة الذوق العربي وقد تكفل ببيانها ايمة علم المعاني

واما الصراحة فهي دلالة اللفظ على كمال المعنى المراد بان يتعين المراد منه قال الجاحظ في كتاب البيان « حسن البيان هو الابانة عما في النفس بكلام بليغ بعيد عن اللبس » و يحصل ذلك بامور كثيرة منها توخي الالفاظ الموضوعة للمقيدات نحو الخوان للمائدة قبل ان يوضع عليها الطعام و الرسف لمشي الرجل المقيد و القاني

(٣) ابن رشيق علي القيرواني كاتب الدولة الصنهاجية ولد بالمهدية سنة ٢٩٠ ونشأ بالقيروان وسكن بمازر من جزيرة صقلية حين انتقل اليها بعد خراب القيروان وتوفي بها سنة ٣٦٣ له كتاب العمدة في صناعة الادب

لشديد الحمرة والصباحة للوجه والوضاءة للبشرة واللباقة للشمائل والرشاقة للقد والظرف في النطق و نحو ذلك ولذا تجب معرفة المترادفات لانها لا تخلو عن تقييد او اطلاق: ومنها تجنب استعمال المشترك بدون قرينة مثل كلمة مسرج في قول روبة بن العجاج « و فاحما ومرسنا مسرجا » فلم يعرف هل اراد انه كالسراج ام كالسيف السريجي في الدقة والاستواء و قولنا بلا قرينة يخرج نحو قوله تعلى فالذين آمنوا به وعزروه و نصروه فان عطف نصروه يبين ان التعزير هنا هو النصر لا ضرب الحد ونحو قول الحريري فيدعي تارة انه من آل ساسان حيث علم انه يريد ملوك الفرس لمقابلته بقوله «يعتزي مرة الى اقيال غسان» فانتفى احتمال ان يكون المراد الشحاذين الذين اطلق عليهم هذا اللفظ في موضع آخر. وقد يدعو المقام للعدول عن الصراحة لاغراض مثل التورية والتوجيه والمواربة ويحسن ذلك في التخلص من المضائق كقول بعضهم وقد سئل في مجلس جماعة من الشيعة عن الافضل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « الذي كانت ابنته تحته » فاحتمل ان يريد ابا بكر وعليا رضي الله عنهما بحسب الترتيب في الضميرين (تنبيه) مما يدخل تحت هذا الشرط التنبيه الى كلمات كثيرة يستعملها الكتاب والمنشئون غلطا اما في معناها واما في اشتقاقها وقد الف في ذلك الحريري درة الغواص والف فيه بعضهم لف القماط فيما يستعمل من الاغلاط و قد اكثر الكتاب المتأخرون من ذلك والف في ذلك الشيخ ابراهيم اليازجي كتابا سماه لغة الجرائد إلا انه قليل الفائدة كثير الغلط في كثير مما عده غلطا فعلى المنشىء أن لا يتابعهم في استعمال لفظ إلا بعد تحقيق معناه لغة فمن اغلاطهم ردح من الزمن يريدون حصة قليلة و انما هو المدة الطويلة جدا . وقولهم باهض بمعنى كثير و انما هو الامر المنتقل. وقولهم توا . بمعنى الآن او الوقت الحاضر وهو غلط اذ التو الذهاب على سواء و استقامة

بحيث لا يعرج على شيء تقول سار توا اي لم يقف ولم يعرج وقولهم ناهز يريدون تجاوز وصوابه بمعنى قارب الى غير ذلك

واما العزة فهي سلامة الكلمة من الابتذال . والابتذال يقع على وجوه احدها نقل العامة الكلمة من معنى واستعمالها في معنى غير حسن كالبهلول فأصله السيد الجامع لصفات الكمال فاخرجه عامتنا للمغفل والخريت أصله البصير بالطرقات كما روي في حديث الهجرة فاستعملوه للجبان وكثير من اسماء الاضداد نشأ من مثل هذا الثاني . ان تكون الكلمة من موضوعات العامة المفقودة او المنسية في فصيح الكلام مثل الخاز باز لذباب الرياض ومثل اللقالق جمع لقلق وهو طائر له منقار طويل دقيق ورجلاه طويلتان [1] الثالث ان يحصل من بعض صيغ الاشتقاق ما يوهم معنى مستبشعا مثل ان يشتق من همه الامر وزن فاعلة فيقال عرضت له نازلة هامة اي مهمة فيتوهم انها الهامة بمعنى الداهية . الرابع ان يكون معنى الكلمة سخيفا فيجب على الكاتب ان اضطر الى التعبير عن مدلولها ان يتنكب عنها الى مسالك الكناية تنزيها للسان كما جاء القرآن العظيم او لامستم النساء ولكن لا تواعدوهن سرا ويغتفر استعمال المبتذل في مقام الهزل او الحكاية او المشاتمة مثل ما وقع في اوائل رسالة ابن زيدون المشهورة برسالة ولادة .

واما الرشاقة فهي مناسبة حال اللفظ لمقام الكلام فان الالفاظ منها جزل ومنها سهل فالجزل يستعمل في ذكر الحروب والحماسة والتوبيخ ونحوها والسهل في مقام الملاطفة والغزل والمديح ومنها ما لا يوجب شيئا من الامرين والتحقيق ان كل هذا لا يتبع وصف الالفاظ في ذاتها اذ ليس وصفها مختلفا ولكنه يتبع جلب بعض الالفاظ وترك البعض بحسب المقام كما حسن استعمال سيدتي في قول ابي العتاهية

الا ما لسيدتي مالها ✲ تدل فاحمل ادلالها

---

(١) اشرنا الى قول ابي الطيب شعراء كانها الخاز باز والى قوله يصيح الحصا فيها صياح اللقالق

ولو جيئ به في مقام آخر لقبح وقد عيب على جميل قوله

الا ايها النوام ويحكم هبوا ✲ اسائلكم هل يقتل الرجل الحب

كما تقدم في آخر القسم المعنوي

احوال الالفاظ المركبة

وللالفاظ في حال تركيبها احوال غير احوالها مفردة وهي تجمع في فصاحة الكلام ونزاهته وانسجامه والاقتصاد من الفضول فيه واتصال جمله ومناسبته للغرض. فاما فصاحة الكلام فقد عرفت في علم المعاني. واما النزاهة فهي الخلو من الالفاظ المستهجنة والشنيعة ولو باعتبار ما يسبق الكلمة او يلحقها وقد عيب على ابي تمام قوله

« اعطيت لي دية القتيل وليس لي ✲ عقل ولا حق هناك قديم »

فانه اراد العقل بمعنى العاقلة في القرب من القتيل الا ان تركيبه مع ليس ولي اعطاه صورة نفي العقل بمعنى الادراك عن نفسه كما يقال ليس لفلان عقل . واما الانسجام فهو سهولة الكلام في حال تركيبه بحيث لا يثقل على اللسان ومرجع ذلك للفظ وهو اخص من فصاحة الكلام قال الجاحظ عن بعض الادباء « ان المعنى اذا اكتسى لفظا حسنا واعاره البليغ مخرجا سهلا صار في القلب احلى وللسمع املا » ويندرج تحت الانسجام سلامة الكلام من التكلف والتصنع بحيث لا تعرف منه كد الذهن ولا تلفيق المعاني لاجل الالفاظ ولا البحث عن الالفاظ المستغربة وكذا الاكثار من المحسنات البديعية المتكلفة التي يعبر عنها بالصنعة وان وقع شيء منها فانما يقع بدون تكلف او بخفيف من التكلف عند ما تجود به فرصة المقام ويسمى الكلام المستكثر منها مصنوعا وغير المتكلف لها مطبوعا قال صاحب التلخيص» واصل الحسن في جميع ذلك ان تكون الالفاظ توابع » وممن عيب عليه التكلف في ذلك ابراهيم بن هلال الصابي كاتب بني بويه وعبد الله ابن المعتز . وفن الشعر اشد تحملا للصنعة من النثر . واما الاقتصاد فهو بطرح الفضول في اللفظ

وحذف المكرر من القول والاستغناء عن كثرة الموكدات وان كان لهذا شيء من التعلق بالمعاني إلا اننا ادرجناه في عداد صفات اللفظ لما كان المعنى فيه غير معتبر وانما الداعي اليه الاكثار من الالفاظ او التهويل بها مثل قولهم « من غير شك ولا ريب » وقول بعض من وصف العفو « لا سيما اذا عظم الجرم وكبر الاثم ». والملوك انما تؤثر عنهم الخلال الحميدة . والخصال الشريفة السعيدة . ومثل زيادة حروف لا حاجة اليها كقول بعضهم من المعلوم وانه كذا وقول بعضهم قبل بكذا فكل من الواو والباء مزيدة عبثا

تمـــرين

كتب ابو اسحاق الصابي في طالعة بعض مكاتيبه «الحمد لله الذي لا تدركه الا عين بالحاظها ولا تحده الالسن بالفاظها ولا تخلقه العصور بمرورها ولا تهرمه الدهور بكرورها ثم قال لم ير للكفر اثرا إلا طمسه ومحاه ولا رسما إلا ازاله وعفاه الخ» فكل من الفقرتين الرابعة والسادسة عين معنى الثالثة والخامسة وكتب في بعض كتبه « يسافر رأيه وهو دان لم ينزح ويسير تدبيره وهو ثاو لم يبرح » والفقرتان بمعنى واحد وكتب الصاحب بن عباد « وصل كتابك جامعا من الفوائد اشدها للشكر استحقاقا واتمها للحمد استغراقا وتعرفت من احسان الله فيما وفر من سلامته وهيأه من كرامته انفس موهوب ومطلوب واحمد مرقوب ومخطوب الخ » وفي هذا ما يقرب من اعادة المعاني وقد شمل قولنا الاقتصاد الذي هو في اللغة الاخذ بالعدل ما يقابل ما وصفناه من الفضول وذلك هو الاخلال بما يلزم من اللفظ لاداء المعنى وهو عيب إلا اذا كان مقصودا لغرض .كالالغاز والمحاورات العلمية المشتملة على اصطلاحات لا يفهمها غير اهل ذلك العلم وقد حصر الماوردي رحمه الله في كتاب ادب الدين والدنيا الاسباب المانعة من فهم الكلام لعلة فيه في ثلاثة وهي تقصير اللفظ على المعنى. وزيادة اللفظ على المعنى. والمواضعة اي الاصطلاحات.

واما اتصال جمل الكلام فهو فسطاط علم الانشاء وحلبة استباق همم المتضلعين فيه وقد تتبعت كلام ايمة الفن فوجدت غاية ما تبلغ اليه الضوابط في اتصال جمل الكلام على كثرة الاسماء والالقاب المتناثرة في كتب الادب اربعة

اشياء تناسب بعض الجمل مع بعض وعدم انفكاك بعضها عن بعض و الانتقال من اسلوب الى اسلوب و حسن الابتداء والتخلص و الختام: فاما تناسب بعض الجمل مع بعض وهو المعبر عنه بالفصل و الوصل فموضع القول فيه في علم البلاغة. واما ارتباط الجمل وعدم انفكاك بعضها عن بعض فهو ان تتصل الجمل ولا يفصل بينها إلا بشيء مناسب لها و يعرف كيف يكون الرجوع عما فصلت به الى ما فصلت عنه إذ المتكلم في المقامات الخطابية لا يقتصر على ما تكلم لاجله والالجاء الكلام قصيرا و ما طالت الخطب والقصائدوصار الكلام كله امرا او نهيا او خبرا فلذلك احتيج الى تقديم المقدمات و ذكر العلل والغايات والاستشهاد بالمناسبات واستطراد النظائر والامثال فقديما ما صدر المديح بالنسيب والخطبة بالثناء و الاعتبار فاذا علم المتكلم اين يضع اجزاء الكلام جاء كلامه مرتبطا واذا لم يحسن ذلك اختلط عليه وخرج من غرض الى غرض فاذا استطرد او قدم او ذيل فليقتصر على قدر الحاجة فانه ان زاد على ذلك سمج كما ترى في مستطردات حياة الحيوان ولقد نال شيء من ذلك بعض مواضع كتاب كليله ودمنه لابن المقفع على مكانته من علم البلاغة إلا انه كان كتابا مترجما من لغة الفرس ومن وجيز مستطرداته قوله « لما قرب ذو القرنين من فور الهندى و بلغه ما اعد له من الخيل التي هي كقطع الليل مما لم يلقه بمثله احد من الملوك الذين كانوا في الاقاليم تخوف ذو القرنين من تقصير يقع به ان عجل المبادرة الخ » فلقد اسرع الرجوع الى الغرض وقول الفتح في قلائد العقيان « انه حضر مجلس راح. ومكنس ظباء وافراح. وفيه جماعة منهم الوزير ابو بكر شيخ الفتوة ومعرض فتياتها المجلوة ومعهم سعد بن المتوكل وهو غلام ما نضا عنه الشباب برده. ولا اذوى ياسمينه ولا ورده. وكان الوزير واخواه مختصين بالفضل اختصاص الانوار بالكمائم و اللبات بالتمائم فتذاكروا فقده وكيف أشفى منه الزمان

حقده فهاج شجوه و بان طربه و لهوه و ارسل مدامعه سجالا وقال ارتجالا الخ»
وكذا من الشعر قول النابغة

فما الفرات اذا جاشت غواربه ✲ ترمي اواذيه العبرين بالزبد
يمده كل واد مترع لجب ✲ فيه ركام من الينبوت والخضد
يظل من خوفه الملاح معتصما ✲ بالخيزرانة بعد الاين والنجد
يوما باجود منه سيب نافلة ✲ ولا يحول عطاء اليوم دون غد

وربما طال الاستطراد لاقتضاء المقام ذلك فيناسب عند الرجوع الى الغرض المقصود ان ينبه السامع لذلك باعادة الكلمة التي تربط الغرض مثل كلمة لولا في قوله تعلى «فلولا اذا بلغت الحلقوم» الى قوله «فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها» لان أصل الكلام فلولا اذا بلغت الحلقوم ترجعونها ان كنتم صادقين في انكم غير مربوبين

واشد من يظهر احتياجه الى رعي قواعد هذا الاتصال الخطباء فان من دابهم التطرق الى موضوعات كثيرة فان هم لم يحسنوا ترتيبها جاء الكلام نتفا ينبو بعضه عن بعض وقد راينا الشعراء لا يزيدون في انفكاك الغرض على اكثر من ثلاثة ابيات ويتوخون من الصفات ونحوها ما له علاقة بالغرض شديدة وكذلك شان الكاتب ايضا. واما الانتقال من غرض الى غرض ومن اسلوب الى اسلوب فهو زينة الكلام للكاتب والشاعر والخطيب وهو احسن تطرية لنشاط السامع واكثر ايقاظا للاصغاء اليه ويختص من اللطافة بمثل ما قرره علماء المعاني للالتفات فقد سماه السكاكي قرى الارواح ولابد فيه من مراعاة المناسبة كما ترى في انتقالات القرآن العظيم. واما حسن الابتداء والتخلص والختام فانما خصت بالبحث وان كان جميع الكلام مشروطا بالحسن فذلك لان الاجادة فيها اعسر اذ الابتداء هو اول ما يقرع السمع واول ما يبتدىء به المتكلم وهو مفتاح الكلام فان هو اتقنه كان اتقانه معينا على النسج على منواله كما يقال الحديث شجون وكذلك التخلص من المقدمة الى الغرض فانه يحتاج الى فضل براعة في الارتباط بينهما وكذلك

الختام لانه يجب ان يكون قد استوعب ما تكلم لاجله حتى لا يثني اليه عنان الكلام مرة اخرى بعد السكوت و لا جرم ان يكون ما يتخلل بين هذه الثلاثة رشيقا بليغا متى سهلت على المتكلم الاجادة في هذه الثلاثة وهذا هو المراد من التأنق الذي حرض عليه ايمة البلاغة في هاته المواضع الثلاثة

ولنرجع الى الحالة السادسة من احوال الالفاظ المركبة وهي مناسبة الكلام للغرض بان يناسبه في الرقة والجزالة وبان تناسبه كيفية انتظامه من سجع وترسل وايجاز واطناب و بساطة و صنعة وهذا اهم شيء في الانشاء بعد ما تقدم و اصعبه ومن الادباء من يقسم الانشاء الى عال ووسط و سافل فيظن من لا يتأمل ان هذا التقسيم يدخل في التعليم و هو غلط اذ التعليم لا يقصد إلا الغاية العليا من الفن الذي يعلم وانما المراد التنبيه على مراتب الانشاء في الخارج و الموازنة بينها ليحصل من ذلك تمرين على اختيار احسنه نعم يكتفي معلم المبتدئين منهم بالانشاء السافل لكن لا ليبقوا في تلك المرتبة بل ليرتقوا عنها رويدا رويدا و يحتذوا في كل صنف آثار المجيدين فيه من كتاب دولة وادباء وموثقين و صحافيين وخطباء و مؤرخين ومؤلفين وشعراء فتوجد في كل صنف منها مراتب في البساطة والتأنق بحسب احوال المخاطبين من خاصة وعامة و اذكياء و اغبياء ولا شك ان لاحوال المتكلمين ايضا علاقة بحالة انشائهم فلذلك غلب على العرب الاندلسيين الرقة في الكلام وعلى العرب في صدر الاسلام الجزالة و على اهل الحواضر و السبق في المدنية مخترع المعاني و بعكسهم اهل البوادي وقد قال بعض الادباء لما قيل له ما يمنعك ان تقول مثل قول ابن المعتز في تشبيه الهلال

فانظر اليه كزورق من فضة ✲ قد اثقلته حمولة من عنبر

فقال « كل يقول بما يرى في بيته » ولا باس ان نمثل هنا لشيء من اغراض الكلام وما يناسبها من احوال الالفاظ المركبة وان كان ذلك لا ينحصر ولكن لتحصيل انموذج منه للمتعلم وعلى المدرس ان ياتي لكل صنف منها بمثال من

المنشآت ليحترز على الغلط في وضع بعض هاته الفنون في غير ما يليق به من الاغراض
فان من عكف على بعض هاته الفنون وارتسم وحده في ذهنه لم يكد يعدوه الى
غيره فربما وضعه في غير ما يحسن وضعه فيه مع ان الواجب الاخذ من كل فن
والاطلاع على جميعها : وبيان ذلك ان الرقة والصنعة تستحسان في الاغراض الهزلية
والتهاني والمقامات والمواعظ الترغيبية ومخاطبات الاصدقاء في المودة ونحوها.
والجزالة وما يقرب منها تستحسن في المراثي والترهيبات والحروب والمخاطبات
من العظماء والادعية والتآليف العلمية. والسجع يحسن وقعه في المقامات والتهاني
والوداديات والغراميات لقربه من الشعر وديباجات التآليف ومقدمات التحلية
في المخاطبات والامثال والحكم لان المراد تعلقها بالحفظ والسجع يعين على ذلك مثل
النظم. والترسل يحسن في الادعية والخطب والمواعظ والعلميات والتاريخ والتراجم
ومخاطبات العموم والمراسلات الدولية والصكوك والشروط ونحوها. ومتى وضع
فن من فنون احوال الالفاظ المركبة في غير موضعه المناسب جاء سمجا كما ترى
من سماجة خطب الخطباء المنتحلة من خطب الشيخ ابن نباتة ونحوه مع ان
المخاطب بها العموم الذين لا يتفطنون لما أكده الخطيب فيه ذهنه وكما ترى من
ثقل التاريخ اليميني للكاتب ابي نصر العتبي فانه اودعه من السجع ومحاسن
الصنعة ما كان بعيدا عن ان يودع في تاريخ الحوادث وكذلك كتب التراجم
مثل الريحانة للخفاجي التي ظن اصحابها انهم يتبعون فيها الفتح ابن خاقان
الاندلسي صاحب قلائد العقيان مع الغفلة عن الفرق بينهم وبينه فان المهم
من غرضه هو ذكر ملح المترجم لهم في البلاغة والرقة ووصف مجالس
انسهم فكان له العذر فيما التزمه من السجع والصنعة على انهم لو كانوا
اجادوا جودته لكان في الامر بعض السلو ولكنهم اهملوا هذا واهملوا
الترجمة فلا تاخذ منها إلا تحليات الله اعلم بمطابقتها للواقع وتكاد ان
ترى المترجم لهم متماثلين فيها وانك لتنظر الى منشآت ابن الخطيب رحمه الله

فتراها علي علو كعبها قد اشتملت على شيء من السماجة الحاصلة من الاطناب والاسهاب في كل غرض وكذلك تجد مثل ذلك في التقاليد التي انشأها الكاتب الحسين ابن ابي نماء كاتب الخليفة الناصر العباسي في أواخر القرن السادس (٥٧٥ - ٦٢٢) فلا يكاد يصل المطالع الى المقصود من التقليد إلا وقد أسأمه النظر وخسيء منه البصر (١)

السجع والترسل

لما جرى الكلام على السجع والترسل وكان السجع من اشهر طرق الانشاء حتى ظنه كثير من الناس الانشاء كله وجب ان نشير الى حقيقته وشيء من اقسامه ومحامده ومعائبه والمفاضلة بينه وبين الترسل: قال ابن الاثير في المثل السائر «السجع تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد والاصل فيه الاعتدال في مقاطع الكلام ولكن لا يكمل السجع إلا اذا كانت الفاظه غير غثة ولا باردة والمعني بالغثة الباردة ان صاحبها يصرف نظره الى السجع من غير نظر الى المفردات وما يشترط لها وإلا لكان كل اديب سجاعا بل هنالك مطلوب آخر وهو ان يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى فانك اذا صورت في نفسك معنى ثم اردت ان تصوغه بلفظ مسجوع ولم يواتك إلا بزيادة في اللفظ او نقصان منه فاذا فعلت ذلك فهو الذي يذم من السجع لما فيه من التكلف واما اذا كان محمولا على الطبع غير متكلف فانه يجيء في غاية الحسن اه» واحسنه ما تساوت فواصله او تقاربت في طول لا يقطع النفس ولا يقصر عن اربع كلمات او يقاربها

(١) الحسين ابن علي بن ابي نماء توفي بعد الستمائة وله تقاليد خطط وكتائب نثرية مسجوعة جمعها في ديوان له سماه «روض البلاغة وغدرها» وجمعها ايضا بعض معاصريه في ديوان

كثلاث طوال و يغتفر ان تكون الفاصلة الثانية اطول من الاولى والقبيح ماطالت فاصلته الاولى وقصرت الثانية والمتوسط ما تقاصرت فواصله جدا وان كان محتاجا الى قوة في اللغة وقد اكثر منه بديع الزمان الهمذاني. واذا لم يلتزم الكاتب السجع وكان كلامه ترسلا حسن ان ياتي في اثنائه بهاته الكيفيات كلها بلا قيد. واقسامه وتفاريعها كثيرة تكفلت ببيانها كتب البديع وهو يدل على مقدرة الكاتب اذا جاء في غاية الحسن غير متكلف لانه يؤذن بسعة صاحبه في استحضار ماير يد من المفردات اللغوية و بجودة قريحته في تطبيق المعاني على الاسجاع و لكنه لا يحسن إلا في مواقعه من الرسائل والديباجات والاشياء المقروءة والامثال والحكم التي يراد تناقلها وتعلقها بالاذهان ولذلك يحسن في بعض الجمل من الخطب وهو ما كان موضع حكمة او موعظة وليس قول الشيخ عبد القاهر في مقدمة اسرار البلاغة « ان الخطب من شانها ان تعتمد فيها الاوزان و الاسجاع فانها تروى وتتناقل تناقل الاشعار» الا ناظرا لذلك كما يلوح اليه تعليله وإلا فهو لا يجهل ان جل الخطب النبوية وخطب السلف و العرب كانت غير مشتملة على الاسجاع إلا قليلا. و لا يحسن السجع في البدائه والارتجالات لانه يصرف الذهن عن المحافظة على المعنى بخلاف الكاتب فانه في سعة من امره و لهذا لا نجد السجع كثيرا في كلام العرب و من يليهم ممن كانوا لا يزورون الكلام من قبل وما يرى في نهج البلاغة من الخطب المنسوبة لسيدنا علي رضي الله عنه من هذا النوع فهو من موضوعات ادباء الشيعة كما هو مشهور . و لا يرتجل احد خطابا مسجوعا إلا و قد دل على انه محفوظ لديه من قبل. و السجع يكسو الكلام الخلي عن المعاني الفائقة و عن المحاسن اللفظية جمالا و لذلك ياوي اليه ضعفاء الكتاب كما قال ابن خلدون بخلاف الترسل فلا يظهر رونقه إلا اذا صح معناه وجادت الفاظه.

---

(٢) على المدرس ان ياتي بامثلة من جميع هاته الانواع مأخوذة من مواضعها وقد اشرنا اليها بما يدفع عنه مؤنة التفتيش

التمرن على الاجادة

معالجة المتكلم اداء ما قرره وهذبه من المعاني بما يناسبها من اللفظ• وما يناسب غرض الكلام ومقامه هو غاية علم الانشاء لان تلك المعالجة تصير دربة وبيانا ويحصل ذلك بمطالعة كلام البلغاء وتتبع اختيارهم وسبر اذواقهم في انتقاء الالفاظ وابتكار المعاني لتنطبع في الذهن صور مناسبة كما تقدم في اساليب الانشاء فيحصل من ذلك ما لا يحصل من دراسة قواعد الفصاحة والبلاغة وقد قالوا « ان السمع ابو الملكات اللسانية» ولهذه المعالجة طرائق: احداها المطالعة. ثانيها الحفظ. ثالثها حل الشعر وعقد النثر. بمعنى تصيير الشعر نثرا والنثر نظما مع المحافظة على اصل المعنى سواء كان بتغيير قليل في اللفظ وفي المعنى ام بدونه ومن احسن حل الشعر قول صاحب قلائد العقيان « فانه لما قبحت فعلاته وحنظلت نخلاته . لم يزل سوء الظن يقتاده . ويصدق توهمه الذي يعتاده» حل به قول المتنبي

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ✲ وصدق ما يعتاده من توهم

وقول الخوارزمي في بعض مكاتيبه « اذا احسّ من لسانه بسطة . ووجد في خاطره فضلة. واصاب من القول جريانا قال ما وجد بيانا» فحل بذلك قول الشاعر

وقد وجدت مكان القول ذا سعة ✲ فان وجدت لسانا قائلا فقل.

« مع تغيير في اللفظ والمعنى. واما عقد النثر فكثير ومنه قول ابي تمام

اتصبر للبلوى عزاء وحسبة . فتؤجر ام تسلو سلوّ البهائم.

عقد قول علي رضي الله عنه للاشعث بن قيس « اما صبرت صبر الاحرار. وإلاسلوت سلو البهائم. حكى القاضي الفاضل قال ارسلني ابي الى يوسف ابن ابي الخلال رئيس ديوان الانشاء بمصر في الدولة الصلاحية لتعلم فن الكتابة فرحب بي ثم سألني ما الذى اعددت من الآلات فقلت القرآن وكتاب الحماسة فقال ان في هذا لبلاغا فلما ترددت اليه وتدربت بين يديه امرني ان احل شعر

الحماسة فحللته من اوله الى آخره ثم امرني ان احله مرة ثانية ففعلت فقال لي اشتغل بمثل هذا وانت اذا تحسن الانشاء. ومما يجب التنبه له ان المرجع في كل صنف الى اختيار جيد انشاء فحوله ففي الكتابة يجب تتبع اساليب مجيديها من كتابة ديوانية او ادبية او علمية او صحافية وفي الشعر كذلك وفي الشروط والتوثيق كذلك وفي الخطابة كذلك وفي المحادثات يجب التمرن بمطالعة محادثات العرب وقصار الجمل والاجوبة البديعة فان معرفة المراسلة والخطابة لا يغني عن معرفة كيفية المحادثة الا ترى انه لو عمد انسان الى ان يكتب كما يتكلم لجاءت كتابته مقطعة وكذا لو تكلم كما يكتب لكان كمن يسرد شيئا محفوظا وهكذا تجد لكل فن لهجة تشبه ان تكون لغة خاصة فمن الغلط الكبير ان يلتزم المتمرن اسلوبا واحدا او طريقة منفردة لا يعدو ذلك الى غيره وقد تنبهت الى انموذج ذلك وفي استقرائه كثرة وليس الري عند التشاف والله اعلم

انتهى القسم اللفظي وفي منتهاه بلغ ما اردناه من اصول فن الانشاء وسنقفيه ان شاء الله تعلى بخلاصة تتعلق بفن الخطابة وآداب الخطباء لتكون له كالتكملة وعسى اذا حظي ذلك باعمال بصيرة نقادة. واوري له زناد فكرة وقادة.
ان يكون كافيا للمتعلم القاصد.
سيما اذا نقحها المدرس النحرير
بما تجود به همته
من الزوائد

انتهى

يتلوه الكلام على فن الخطابة

فن الخطـــابة

ما هـي الخطـابة

ان الخطابة و ان كانت فنا من فنون الانشاء و كانت القواعد المتقدمة و الشروط المقررة مطردة فيها لا محالة غير ان صاحبها لما كان اشد اعتمادا على البداهة و الارتجال منه على الكتابة تعين ان يذكر لها من الضوابط والشروط ما لا يجري مثله في عموم صناعة الانشاء كما كان للشعر من الضوابط ما يختص به عن الانشاء و ان كان هو في الاصل فنا من افانينه. ولقد رأينا من المتقدمين ممن ألف في صناعة الانشاء لم يعرجوا على ذكر ما هو من خصائص الخطابة حتى انك لتجد شيئا من قواعدها في خلال مطولات كتب المنطق ولا تجد ذلك في كتب الادب غير ان المناطقة خصوها بضرب من ضروب الحجة و هو ما يتركب من قياسات مظنونة او محمولة على الصدق واما المعني بها عند علماء الادب فهو شامل لجميع اقسام الحجة اذ الخطيب قد ياتي بجميعها وان كان الغالب عليه بيان القياسات المظنونة اذ هو لا يتعرض للقطعيات إلا عند الاحتجاج بها ولا يتعرض للشعر والسفسطة الا نادرا لئلا يعرض نفسه للتكذيب او الاستخفاف.

فيمكن ان نعرفها بانها «كلام يحاول به اقناع اصناف السامعين بصحة غرض يقصده المتكلم لفعله او الانفعال به» فقولنا كلام خرجت به الرسائل العامة و المكاتيب و التقاليد الموجهة للبلدان [١] وشمل ذلك الكلام المنظوم والمنثور اذ يجوز ان تشتمل الخطبة على نظم او يكون جلها نظما كما سيأتي : و قولنا يحاول به اقناع اصناف السامعين يخرج التدريس فانه كلام يحاول به اقناع صنف واحد من السامعين و هم طلبة فن خاص في موضع خاص ولا يسمى ذلك في العرف خطابة ولا صاحبه خطيبا وان كان له

---

(١) مثل ما صدر عن الوزير ابي القاسم ابن الجد الاندلسي الى اهل غرناطة عن لسان امير المسلمين (انظر صحيفة ١١٣ من قلائد العقيان)

عون كبير على ملكة الخطابة و تعلق شديد باصولها. و يخرج ما يخاطب به شخص واحد كالمناظرات العلمية ومرافعات الخصوم و الوكلاء لدى القضاة فانها لا تسمى خطابة عرفا وان كانت شديدة التعلق بقواعدها وفي الحديث ولعل بعضكم ان يكون الحن بحجته من بعض فاقضي له على نحو ما اسمع (١). وقولنا بصحة غرض يقصده المتكلم نريد منه التعميم ليشمل كل غرض تصدى الخطيب لترويجه سواء كان المراد حمل الناس على فعله كالحث على طلب العلم والجهاد ام اعتقادهم صوابه كالخطبة في ارضاء الناس بامر واقع. و يشمل ذلك الخطب التي يردُّ بها الخطيب على الغير او يعتذر بها عن فعله او فعل غيره. ام الكف عن فعل كالمواعظ و تسكين الثورات ام تحصيل علمهم به كالخطب التي تقال على السنة الملوك والرؤساء لاعلام بقانون او فتح او نحو ذلك (٢). و يشمل ذلك التعليم الذي يتعرض له الخطيب مثل الخطب الدينية التي يتعرض فيها لتعليم بعض الواجبات فانها لا تتلقى بوصف قواعد علمية ولكن بوصف تعليمات عامة تستوي فيها الناس او بوصف التنبيه على تركها واهمالها و بهذا الاعتبار تصير غرضا للمتكلم يحاول الاقناع بصحته (٣). و يخرج به ما يقرأ على المنابر من عقود البيعات السلطانية ونحوها كالتقاليد فلا تسمى خطبا و انما القصد من ذلك اشهارها واعلانها. «وقولنا لفعله والانفعال به» اشارة الى غاية الخطيب من الخطابة وهي اما فعل المخاطبين شيئا يريده او اعتقادهم شيئا يعلمهم اياه وقد انطبق التعريف على المعرف

---

(١) الحن تفضيل من لحن لحجته اذا فطن لها وافصح عنها

(٢) مثل ما خطب به عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه بالمدينة حين ارسله عبد الله ابن ابي سرح مبشرا بفتح افريقية (٣) ولذلك لا يعاب فيها جمع اشياء من ابواب مختلفة ولا يجوز ذلك في التدريس وذلك مثل خطبة حجة الوداع

منافع الخطابة

ان الخطابة ركن عظيم من آداب الاجتماع البشري فبها يحصل تهذيب الجمهور و حملهم على ما فيه صلاحهم وتسكين جاشهم عند الروع وبث حماسهم عند اللقاء وبها تحصل محاجة المموهين عليهم والمعنتين لهم اذ الجمهور انما يتألف من افراد لا تبلغ عقولهم بسرعة الى ادراك البراهين النظرية ولا تهتدي من تلقاء نفسها الى الغايات الحقيقية فناسب ان يعدل عند خطابهم الى الامور الاقناعية وهي المشهورات الموصلة الى ما يوصل له البرهان ولو خالفته في الطريق وقد يخاطب الخطيب قوما من الخاصة إلا ان المقام يكون نابيا عن سلوك طريقة البرهان اما لقصر الوقت واحتياج البرهان الى طول(١) واما لان في البرهان خفاء(٢) وتدقيقا و تفاوتا في قبول الناس له او مكابرة في الاعتقاد فيصار الى الاقناعيات والتمثيلات والمسلمات لتمكن معارضة الخصم الالد و ايقاظ الغالط الغافل. ولذلك كان الخطيب في حاجة الى معرفة محاسن الاشياء و اضدادها ليتوسل بذلك الى مناقضة ضال مروج او ارشاد جاهل غير متيقن. وحسبك من منفعة الخطابة ان الله تعلى شرع لنا الخطبة عند كل اجتماع مهم من جمعة وعيد وحج وذلك ان النفوس تميل في طباعها الى متابعة الشهوات وتتجهم الاتباع لمقتضى الاخلاق الفاضلة فاذا لم تتكرر عليها الدعوة الى الفضائل بالخطب غلبت عليها اضداد الفضائل والعدالة وليس كل صنف من اصناف الناس بصالح

---

(١) مثاله قول عثمان ابن ابي العاص الثقفي لقومه ثقيف حين ارتدت العرب يا معشر ثقيف كنتم آخر العرب اسلاما فلا تكونوا اول هم ارتدادا (٢) مثل قول سهيل بن عمرو وكان واقفا على باب عمر مع جماعة منهم الاقرع بن حابس و عيينة بن حصن و جماعة من وجوه العرب فخرج إذن عمر الى ان يدخل بلال وسلمان وعمار فتمعرت وجوه البقية فقال سهيل لم تتمعر وجوهكم دعوا و دعينا فاسرعوا وابطأنا ولئن حسدتموهم على باب عمر لما اعد الله لهم في الجنة اكثر

لتلقي ذلك وحده من مطاوي كتب التهذيب واوراق الحكمة و لا كل صالح لذلك بفاعل فلا جرم وجب التذكير عند المجتمعات العامة لانها تحشر اصناف الناس .
ولقد كان الشعر اغلب على العرب و كان الشاعر مقدما عندهم على الخطيب في الجاهلية كما قال ابو عمرو بن العلاء لفرط حاجتهم حينئذ الى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم و يفخم شانهم و يهول على عدوهم فلما كثر الشعر و الشعراء و اتخذوا الشعر مكسبة وتسرعوا به الى اعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر و مع ذلك فلم يحفظ من خطبهم شيء كثير لان الشعر كان اسرع الى الحفظ واعلق بالذهن ولما جاء الاسلام وتأسس الدين ارتفع شان الخطابة و قيدت آثارها بشيوع الكتابة

اصول الخطابة

اعلم ان اصول الخطابة من حيث انها كلام منشأ لا تفارق الاحوال الثلاثة التي شرحناها في كيفية انشاء المعنى من القسم الاول في الانشاء وهي المعنى الاصلي و تفصيله. وايضاحه. المشار اليها بقول ابن المعتز « البلاغة ان تغوص لحظة القلب في اعماق الفكر وتجمع بين ما غاب وحضر ثم يعود القلب على ما اعمل فيه الفكر فيحكم سياق المعاني و يحسن تنضيدها ثم يبديه بالفاظ رشيقة مع تزيين معارضها واستكمال محاسنها» وكل ذلك محتاج الى طبع سليم فقد قال ابو داوود ابن جرير « راس الخطابة الطبع » ولكن الذي يختلف هو كيفية التفصيل والتنسيق وكيفية الايضاح والتعبير. فاما كيفية التفصيل فسياتي جلها في معرفة. اركان الخطبة. واما كيفية التنسيق فهو في الخطابة ان يتمكن الخطيب من الموضوع الذي يتصدى للتكلم فيه و يجمع اصوله و يستحضر غايته والغرض الذي يرمي اليه و يتصور ذلك بوجه مجمل ثم يأخذ في تفريعه قبل التكلم لكي لا يرتج عليه عند الشروع ثم انه يحسن ربطه و يناسب في الانتقال لكي لا يشذ عليه وقت الاشتغال

بالتكلم بعض ما كان اعده فان لوقت التكلم ضيقا غير ما يكون من السعة في حال التفكر فاذا أخذ بعض المعاني بايدي بعض وحسن ربط بعضه ببعض كان اسهل استحضارا واقرب تناولا للسامع و الناقل لان بعضه يذكر ببعض ومن هذا ما يعبر عنه بحسن التخلص ثم يعقب ذلك تقرير المعنى على حسب ما تقدم في نقد المعاني ثم الاستدلال عليه وذلك لا يعسر على الخطيب ان هو احسن تنسيق أصول خطبته لانه يتمكن منها كمال التمكن.

ثم ان الخطيب لا يستغني عن الاستكثار من استحضار معان صالحة في اغراض شتى يحتاج اليها في الاستدلال على فضل شيء او ضده لتكون له عونا عند الاندفاع في الخطابة و تخفيفا عن ذهنه من شدة التحضير و لانه ان لم ينفتح له باب القول في غرض ارتجالي ياخذ من تلك المعاني ما يدفع عنه عيب الارتاج والحبسة وقد روي ان عثمان رضي الله عنه لما قام عندما بويع بالخلافة ارتج عليه فقال « اما بعد فان لكل قادم دهشة و انتم الى امام فعال احوج منكم الى امام قوال و ان اعش فستاتيكم الخطب على وجهها » و كذلك روي ان داود بن علي (١) قام للخطبة فلما قال اما بعد ارتج عليه فقال « اما بعد فقد يجد المعسر و يعسر المؤسر و يفل الحديد و انما الكلام بعد الافحام كالاشراق بعد الظلام و قد يعزب البيان و يعتقم الصواب و انما اللسان مضغة من الانسان يفتر بفتوره اذا نكل و يثوب بانبساطه اذا ارتجل الا وانا لا ننطق بطرا و لا نسكت حصرا بل نسكت معتبرين وننطق مرشدين ونحن بعد ذلك امراء القول فينا وشجت اعراقه (٢) وعلينا عطفت اغصانه

---

(١) هو ابو سليمان من خطباء بني هاشم كان انطق الناس واجودهم ارتجالا ولم يتقدم في تحبير خطبة قط قاله الجاحظ (٢) و شجت اشتبك بعضها ببعض والاعراق بفتح الهمزة جمع عرق

ولنا تهدلت ثمرته (١) فنتخير منه ما احلو لى وعذب و نطرح منه ما املولح وخبث و من بعد مقامنا هذا مقام ومن بعد يومنا ايام » فبذلك كان في ارتاجه ابلغ منه في ارتجاله و لو لا ان هذه المعاني كانت حاضرة في ذهنه حتى صار بها خطيبا في بيان احوال الخطيب لسكت و حبس لسانه . ولا بد للخطيب من التنبه الى مواقع النقد و الاعتراض وهي الاشياء التي يظن ان في السامعين من ينكرها لمخالفة اعتقاد او مخالفة هوى فيعد ذهنه للجواب عنها و قد قيل ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد اعد لكل حادثة جوابا وسياتي بيان لذلك في الكلام على الخطيب

و اما كيفية الايضاح و التعبير فقد قال ابو هلال العسكري « الرساله و الخطب متشاكلان في انهما كلام لا يلحقه وزن و لا تقفية وكذلك من جهة الالفاظ والفواصل فالفاظ الخطب تشبه الفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة وكذلك فواصل الخطبة مثل فواصل الرسائل والفرق بينهما ان الخطبة يشافه بها بخلاف الرسائل» وقال في الباب الرابع « اجناس الكلام ثلاثة الرسائل و الخطب و الشعر وكلها تحتاج الى حسن التاليف و جودة التركيب » اهـ و عليه فكل ما قررناه في قسمي الانشاء المعنوي واللفظي يجري بعينه ههنا و لم نزل نرى الخطابة و الكتابة يجريان على سنن واحد في اللهجة و يتلونان تبعا لاذواق العصور المختلفة بلون واحد إلا انه لا بد لنا من ايضاح الفرق بين الرسالة والخطبة الذي اشار له ابو هلال بقوله « الفرق بينهما ان الخطبة يشافه بها بخلاف الرسالة » لكيلا يظن الواقف عليه ان ذلك قصارى الفرق وانما هو ينبوع فروق كثيرة اذ لا يخلو حال الكلام المشافه به من مخالفة لحال الكلام المكتوب المبعوث به و قد حضر لنا من ذلك فروق كثيرة : أحدها ان الخطابة يشافه بها جمع من الناس فهي من هذا الوجه اولى باستعمال الالفاظ السهلة التناول للجمهور مع بساطة المعاني وقلة تركيبها والاغراب فيها . ثانيها انها لذلك يجب ان تكون جملها شديدة الارتباط قريبة التآخي بحيث لا يحسن فيها تطويل الاستطراد ولا بعد معاد الضمائر

(١) تهدلت استرخت الى الارض اي قربت للمتناول

والاشارات و نحوها اذ ليس لذهن سامعها من التمكن في التفهم ما لذهن قارىء الرسالة . ثالثها ان السجع الذي هو فن من فنون الانشاء لا يحسن كل الحسن في الخطابة خصوصا الخطابة التي تقال لجماهير الناس و عامتهم لان السجع لا يخلو عن تكلف الفاظ تحجب ذهن السامعين عن كمال فهم المعاني فان اغتفر فيها السجع فانما هو ما يقع عفوا بلا تكلف اي السجع الذي يطلب المتكلم لا الذي يطلبه المتكلم . رابعها ان الخطابة لما كان شانها الارتجال ولو كانت محضرة او منقحة فينبغي ان تكون صورتها صورة الارتجال فلذلك كانت جديرة بطرح كل ما تشم منه رائحة التصنع. نعم لا نجهل ان الخطابة ضعف التبريز فيها من اواسط القرن الخامس شيئا فشيئا وصارت الخطب مهيئة من قبل القائها وصار الخطباء يلقونها من الاوراق فمالوا فيها الى المحسنات اللفظية التي غلبت على انشاء تلك العصور فما دونها إلا ان تكاثر ذلك لم يحل بصاحب الذوق السليم من ان تخالجه السماجة عند سماعها وهذا هو الذي ايقننا بان كثيرا من الخطب المنسوبة لسيدنا علي رضي الله عنه في كتاب نهج البلاغة هي من موضوعات ادباء الشيعة(١) وان شئت مثالا لهذا وذاك فدونك الخطب النبوية و خطب فصحاء العرب

---

(١) لان خطبه الصحيحة النسبة اليه رضي الله عنه كانت على الصفة العربية الخلية من التكلف مثل قوله « ايها الناس ان الدنيا تغر المؤمل لها والمخلد اليها و لا تنفس بمن نافس فيها و تغلب من غلب عليها وايم الله ما كان قوم قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم الا بذنوب اجترحوها لان الله ليس بظلام للعبيد و لو ان الناس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم النعم فزعوا الى ربهم بصدق من نياتهم و وله من قلوبهم لرد عليهم كل شارد و اصلح لهم كل فاسد و اني لاخشى ان تكونوا في فترة وقد كانت امور مضت كنتم فيها عندي غير محمودين و لئن رد عليكم امركم انكم لسعداء و ما عليّ الا الجهد و لو شئت ان اقول لقلت عفا الله عما سلف اهـ

ثم انظر الخطب المنبرية المجموعة في الدواوين كخطب ابن نباته والخطب التي تضمنتها المقامات الحريرية (١)

ولتمام الاستعانة على التنسيق والتعبير اللذين هما ملاك اصول الخطابة تعين على الخطيب التملي من رواية اقوال الخطباء فان في ذلك معرفة لمعان جامعة

فاين هذه من الخطبة المنسوبة اليه في نهج البلاغة في صحيفة ١٢ التي اولها « الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون » والخطبة التي اولها « احمده استتماما لنعمته . واستسلاما لعزته » في صحيفة ٢٠ ونحوها مما تظهر عليه الصنعة والتوليد عند التأمل

(١) فمن الخطب النبوية ما رواه الجاحظ قال خطب النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله واثنى عليه ثم قال « ايها الناس ان لكم معالم فانتهوا الي معالمكم وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ان المؤمن بين مخافتين بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به وبين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبرة ومن الحياة قبل الموت فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الحياة من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة او النار » وكذلك خطبة ابي طالب في تزويج النبي صلى الله عليه وسلم بخديجة رضي الله عنها المذكورة في السيرة وهي « الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وضيضىء معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه وجعله لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس ثم ان ابن اخي هو محمد ابن عبد الله لا يوزن به رجل الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا وقد خطب اليكم رغبة في كريمتكم خديجة وبذل لها عن الصداق الخ »

والفاظ بارعة وقد نقل الجاحظ عن ابي داوود ابن جرير انه قال «راس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام» وذلك ليعتاد سهولة التعبير كما لا غنية للخطيب عن معرفة احوال الامم ومحامدهم ومذامهم فان ذلك مما يعرض للخطيب ويعينه على التكلم في المجامع لياخذ من ذلك امثالا صالحة او تحذيرات نافعة ولانه يستعين به على تاييد انصاره او الحط من اعدائهم وقد حضر الخطيب خالد بن صفوان الاهتمي بمجلس ابي العباس السفاح ففخر عليه ناس من بلحارث بن كعب واكثروا في القول فقال له السفاح ما لك لا تتكلم فقال له اخوال امير المؤمنين وعصبته فقال له فانتم اعمام امير المؤمنين وعصبته فقال خالد حينئذ « وما عسى ان اقول لقوم كانوا بين ناسج برد ودابغ جلد وسائس قرد وراكب عرد (الحمار) دل عليهم هدهد وغرقتهم فارة وملكتهم امرأة » اشار الى انهم من بقايا سبا وقد قال فيه مكي بن سوادة الشاعر وجمع في شعره ما يلزم الخطيب

عليم بتنزيل الكلام ملقن * ذكور لما سداه اول اولا
يبذ قريع القوم في كل محفل * وان كان سحبان الخطيب ودغفلا
ترى خطباء القوم يوم ارتجاله * كانهم الكروان عاين اجدلا (١)

---

(١) المراد بالملقن النبيه حتى كانه يلقنه غيره ما يقول من شدة بداهته وهذه شنشنة للعرب انهم يسندون المواهب العقلية لقوات خفية كقولهم رجل محدث اذا كان بصيرا بالعواقب وقولهم ان للشاعر رئيا يملي عليه وقولهم في القرآن انه سحر او حديث الجن . والقريع الغالب والفحل . ودغفل هو ابن حنظلة النسابة من بني شيبان كان من البلغاء الخطباء وقد ذكره الجاحظ في كتاب البيان في مواضع - والكروان طائر كثير الخوف - والاجدل الصقر - وسحبان هو بفتح السين ابن زفر بن اياس الوائلي اشهر الخطباء كان

وكذلك معرفة ما يكثر الدعاء اليه مثل منافع المدنية و منافع التعليم ومثل استحضار الخطيب السياسي لعلائق الامم وتواريخ حوادثها و لذكر مفاخر امته ودولتها و استحضار ما يذب به عن سياسته ممن ينتقدها

الخطيب

يتعلق الكلام على الخطيب بامرين احدهما شروطه و ثانيهما عيوبه لتحصل من معرفتهما ما يجب اتباعه و ما يتعين عليه تركه

اما شروطه فكثيرة منها ما يرجع الى ذهنه و منها ما يرجع الى ذاته فاما شروط الخطيب الراجعة الى ذهنه فقد ارجعها ارسطو في كتابه في الخطابة الى ثلاثة اشياء هي كالاصول لها: اولها معرفة الاقوال التي يحصل بها الاقناع. و ثانيها معرفة الاخلاق و الفضائل الذاتية. و ثالثها معرفة الانفعالات ومن اي شيء تكون. ونحن نزيدها رابعا وهو قوة البداهة في استحضار المعاني. اما الثلاثة الاول فقد شرحها ابن رشد في تلخيص كتاب ارسطو بعض الشرح ونحن نزيدها بيانا فنقول

اما معرفة الاقوال المقنعة فالمراد بها معرفة الاقيسة الخطابية و ذلك يحصل من التمييز بين الاقيسة الصحيحة والكليات وجزءياتها والصادق والكاذب و مراتب انواع الحجة و ذلك مما دون له علم المنطق ولا نريد معرفته بصناعة المنطق اذ قد كان الخطباء خطباء قبل تدوينه ولا يزال الخطباء خطباء

يضرب به المثل في البيان ادرك الاسلام وتوفي سنة ٥٤ قيل كان اذا خطب لا يعيد كلمة ولا يتوقف وكان معاوية رضي الله عنه يميل اليه و يحضره في مجامع الكلام ولقاء الوفود

ومنهم من لم يخطر المنطق ببباله وانما المراد ان تكون له ملكة التمييز سواء حصلت تلك الملكة من سلامة الفطرة واصالة الراي ام من مزاولة الفنون الحكمية ويلحق بذلك معرفة الحق و الباطل والمقبول والمردود والصريح والخفي والظاهر والمؤول ونضرب لذلك مثلا وهو كلما كان القول اعم معنى كان اكثر تاتيا الان يستعمل في مواطن كثيرة وكلما كان اخص كان اوضح دلالة و اقرب تناولا و لكل مقام ووقت ومخاطب وهكذا معرفة العلل و الغايات وقد تقدم في جزء صناعة الانشاء المعنوي من ذلك مقنع و في ممارسة علوم البلاغة والمنطق منه مبلغ

واما معرفة الاخلاق والفضائل فالقصد من ذلك التمييز بين ما هو فضيلة وضده من الافعال ومعرفة محاسن الاخلاق و مساويها فان بمعرفة ذلك تحصيل غرضين مهمين احدهما رياضة الخطيب نفسه على التحلي بتلك الفضائل وثانيهما معرفته ذلك من حال المخاطبين ليلقي لهم الكلام على قدر احتياجهم و بقدر ما تهيات له نفوسهم. و كان هذا الثاني موجب اشتراط الاستيطان في خطيب الجمعة عند من اشترطه. و اعلم ان الخطيب لا غنى له عن معرفة اضداد الفضائل ايضا اذ قد يدعوه الحال الى بيانها اما لذم ما تشتمل عليه وتؤثره واما لمعرفة ما فيها من منافع قليلة لئلا يبهته بها من يريد التضليل بترويجها فاذا كان عالما بتفاصيلها لم يعسر عليه تفنيد من يضلل بها و في ذلك ايضا عون على الدفاع عن مرتكب هفوة وصاحب فلتة وقد يكون الشيء نافعا في وقت و ضده نافعا في آخر كالشجاعة وقت الحرب والاناة وقت السلم

واما معرفة الانفعالات ومنشئها فهي من اكبر ما يعتمد عليه خطيب القوم اذ به يميز بين ما تنفعل به نفوس العامة وما تنفعل به نفوس الخاصة وما هو مشترك بينهما و بين انواع الانفعالات خيرها و شرها وقوتها و ضعفها وما هو مقبول وماهو مردود وقد تعرض ارسطو الى ذلك بما عبر عنه باثارة الاهواء فقال انها انفعالات في النفس تثير فيها حزنا او مسرة و قال افلاطون لكل امر حقيقة

ولكل زمان طريقة ولكل انسان خليقة فالتمس من الامور حقائقها واجر مع الزمان على طرائقه وعامل الناس على خلائقهم اهـ » فعلى الخطيب ان لا يقيس الناس على حذو نفسه فان منهم من يساويه ومنهم من يفوقه ومنهم من هو دونه وليس ما يزهد فيه الفتى مثلا يزهد فيه الصبي ولا ما يخاطب به الجندي في صف القتال يخاطب به الحكيم اذ رب محمدة عند هذا هي مذمة عند الآخر فنحن ندعو كلا منهما اذا اردنا منه انفعالا بما يناسب اعتقاده. ألا ترى ان حب التعظيم والفخر مثلا لو زهد فيه الطفل في المكتب كما يزهد فيه الحكيم لاستوى عنده العمل والكسل ولم يهتم بمنافسة اقرانه فتضاءلت مواهبه. وكذلك القناعة المحمودة لا يحسن ان يذكرها او يدعو اليها من يخطب في قوم تكاسلوا عن التجارة وفشا فيهم الفقر فان جاء يخطب فيمن اعرضوا عن تعاطي العلم او عن تهذيب النفس لشدة التعلق بالدنيا حسن ان يتعرض حينئذ لمحامد القناعة وانها اكبر غنى

وعلى هذا فالخطيب يخاطب السامعين بمقدار ما يعلم من رتبة انفعالهم بكلامه فتارة يتوجه الى ابتداء المطلوب منهم من غير طلب لوسائله ويكل لهم السعي في وسائل تحصيله وذلك ان علم ان لا نشوز منهم. وتارة يتطلب منهم تحصيل الاسباب والوسائل ان علم منهم نشوزا عن المطلوب ليقعوا في الامر المطلوب بعد ذلك على غير تهيؤ اليه مثال ذلك لو اراد ان يدعو الى امر فيه صلاح عام نحو تكثير سواد الامة بالتناسل ويعلم من المخاطبين بعض الاجفال عن ذلك لما يتوقعون من متاعب تربية البنين والبنات فيقتضي الحال ان يدعوهم الى وسيلة ذاك وهو الحث على التزوج مظهرا له في صفة السعي لمنفعة شخصية مرغبا فيه بما يعود من حسن الاحدوثة او بما يحصل من اجر عاجل او آجل.

وكذلك القول في حمل المخالفين على الشيء بالرغبة والرهبة فاذا كان الخطيب معتمدا على قوة وعلم ان للمخاطبين من الحدة والعصيان ما يحبط سعي الخطيب فعليه ان يتظاهر بقوته بادىء الامر ليفل من تلك الحدة كما فعل الحجاج

يوم دخوله الكوفة وبعد وقعة دير الجماجم (١). هذا وقد يجهل المتكلم في غرض ضمائر الناس ولا يزن مراتب عقولهم فينبغي له ان يتفطن لما يلوح عليهم من الانفعال فيفاتحهم بما يثير انفعالهم من امور صالحة لاغراض مختلفة حتى يرى اميالهم الى اية وجهة تولى فيعلم من اي طريق يسلك اليها ولا بد في هذه المفاتحة من جلب التوريات والتوجيهات ونحوها مما يمكن تاويله ويتيسر له عند اجفالهم تحويله حتى لا يسترسل في موضوعه فيعسر عليه الرجوع الى تعديله وانظر ما قصه

---

(١) اما خطبته يوم دخول الكوفة فهي :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا ✲ متى اضع العمامة تعرفوني

اما والله اني لاحتمل الشر بحمله واحذوه بنعله واجزيه بمثله واني لارى رؤساقداينعت وحان قطافها واني لصاحبها واني لانظر الى الدماءتترقرق بين العمائم واللحى اني والله يا اهل العراق والشقاق والنفاق ومساوي الاخلاق ما اغمز تغماز التين ولا يقعقع لي بالشنان ان امير المؤمنين كب كنانته ثم عجم عيدانها فوجدني امرها عودا واصلبها عمودا فوجهني اليكم الخ » انظرها في البيان والتبيين وفي كامل المبرد

واما خطبته بعد دير الجماجم فهي « يا اهل العراق ان الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والاطراف فحشاكم نفاقا وشقاقا . واشعركم خلافا اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائدا تطيعونه ومؤامرا تستشيرونه فكيف تنفعكم تجربة او تعظكم وقعة او يحجزكم اسلام او ينفعكم بيان الستم اصحابي بالاهواز حين رمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم الكفر وظننتم ان الله يخذل دينه وخلافته وانا ارميكم بطرفي وانتم تتسللون لواذا وتنهزمون سراعا ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم الخ (انظرها في البيان والتبيين)

الله تعلى في كتابه الحكيم عن مؤمن من آل فرعون. « وقال رجل مومن من آل فرعون يكتم ايمانه اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله (فورى في اللوم اي كيف تفعلون هذا بمن يختار لنفسه ربا) وقد جاءكم بالبينات من ربكم (وهذا ارتقاء في الحجة) وان يك كاذبا فعليه كذبه (وهذا تزهيد لهم في قتله بتقديم احتمال الكذب ليظهر انه قصد الانصاف) وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم (وهذا تحضير لنفوسهم الى ترقب صدق معجزته ووعده) ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب (وهذا تورية ايضا اي انكم تنتظرون ما يتبين من امره فان الله لا يصدق الكاذب بخارق العادة) يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الارض فمن ينصرنا من باس الله ان جاءنا (وهذا توبيخ وتقريع لانه قد اوجب بما تقدم انفعال نفوسهم لقبوله اي لا تكونوا سببا لزوال سلطانكم بالتعرض لسخط الله) ». اذ لا شك ان هذا المومن الصالح كان يترقب من قومه الاجفال والتكشف على ايمانه فاظهر لهم الكلام في مظهر المتردد الخائف من حلول المصائب به وبقومه لا المنتصر لموسى عليه السلام. وانما تظهر مواهب الخطيب وحكمته وبلاغته في هذا المقام لان من تكلم عن احتراس وسوء ظن بسامعيه حاط لنفسه من الغلط لان شدة الثقة بالنفس تغطي على عوارها فلا يتقيه ربها. ومن هذا ان يترك لنفسه بابا لتدارك فائت كما قال الحريري في المقامة الثانية والعشرين بعد ان ذكر استرسال ابي زيد السروجي في تفضيل كتابة الانشاء على كتابة الحساب « فلما انتهى في الفصل * الى هذا الفصل * لحظ من لمحات القوم انه ازدرع حبا وبغضا * وارضى بعضا واحفظ بعضا * فعقب كلامه بان قال الا ان صناعة الحساب موضوعة على التحقيق * وصناعة الانشاء مبنية على التلفيق ». هذا ان كان المتكلم مفاتحا بالكلام فاما ان كان مجيبا فقد يلاحظ من اصول المجادلة ما يطول بسطه هنا وعلى كل حال فعليه ان يختبيء للمعترضين من الرجوم ما يقيه وصمة الارتاج عليه او الوجوم

واما الامر الرابع وهو قوة البداهة في استحضار المعاني وسماه ابو هلال في الصناعتين بانتهاز الفرصة فهي من اهم ما يلزم الخطيب اذ ليس يخلو من سامع يدافع عن هواه. او عدو يترصد سقطات الخطيب ليري الحاضرين انه ليس على حق فيما قال. او مجيب يجيب عن تقريع الموعظة. فان لم يكن الخطيب قوي البداهة اسكته المعترض او المجيب وقد كان عمر مرة يخطب يوم الجمعة فدخل عثمان فقال له عمر «اية ساعة هذه: ما بال اقوام يسمعون الاذان ويتأخرون فقال له عثمان ما زدت على ان سمعت الاذان فانقلبت فتوضات فقال له عمر والوضوء ايضا وقد علمت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يامر بالغسل». ويعين على ذلك تنبهه لما في كلام المجيب من مجاري الخلل ومواضع النقد (١)

واما شروط الخطيب في ذاته فمنها جودة القريحة وهي امر غير مكتسب وقد قال موسى عليه السلام واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي وسياتي لذكر اكتسابها كلام في عيوب الخطباء قال ابو هلال من الناس من اذا خلا بنفسه واعمل

---

(١) من هذا ما حكي ان عبد الرحمان بن معاوية الداخل الى الاندلس لما فتح سر قسطه اقبل خواصه يهنونه فدخل معهم بعض الجند فهناه بصوت عال فقال له الامير والله لو لا ان هذا اليوم يوم اسبغ فيه النعمة عليَّ من هو فوقي فاوجب ذلك علي ان انعم فيه على من هو دوني لا صلينك ما تعرضت له من سوء النكال، من تكون حتى تقبل مهنيا رافعا صوتك غير متهيب لمكان الامارة وان جهلك ليحملك الى العود لمثلها فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة فقال له « لعل فتوحات الامير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي فتشفع لي متى اتيت بمثل هذه الزلة لا اعد منيها الله » فتهلل وجه الامير وقال له. ليس هذا اعتذار جاهل ورفع مرتبته فلو لا ان كلام الامير هيأ له العذر ولقنه اياه لبهت من حينه

فكره اتى بالبيان العجيب واستخرج المعنى الرائق و جاء باللفظ الفائق فاذا حاور او ناظر قصر وتأخر فخليق بهذا ان لا يتعرض لارتجال الخطب. ومنهم من هو بالعكس

ومنها ان يكون رابط الجاش اي غير مضطرب في فهمه ولا مندهش لان الحيرة والدهش يصرفان الذهن عن المعاني فتجيىء الحبسة و يرتج على الخطيب

ومنها ان يكون مرموقا من السامعين بعين الاجلال لتمتثل اوامره ويحصل ذلك بامور كثيرة منها شرف المحتد قال الشاعر

لقد ضجت الارضون اذ قام من بني * سدوس خطيب فوق اعواد منبر

وكذلك حفظ العرض بحيث لا تحفظ له هنة او زلة و قد روي عن عمر رضي الله عنه انه قال « احذر من فلتات الشباب كل ما أورثك النبز و اعلقك اللقب فانه ان يعظم بعدها شانك يشتد على ذلك ندمك». وفي متابعة آداب الاسلام والوقوف عند شرائعه ملاك ذلك كله.

ومثل ذلك رجاحة الرأي وقوة العلم والحكمة قال ابو وائلة يهجو عبد الملك بن المهلب

لقد صبرت للذل اعواد منبر * تقوم عليها في يديك قضيب
بكى المنبر الغربي اذ قمت فوقه * فكادت مسامير الحديد تذوب
رايتك لما شبت ادركك الذي * يصيب سراة الازد حين تشيب
سفاهة احلام وبخل بنائل * وفيك لمن عاب المزون عيوب[1]

فهذه اهم الشروط الذاتية و يعد علماء الادب تارة صفات اخرى هي بالمحاسن اشبه مثل سكون البدن وقت الكلام لانه دليل على سكون النفس و لا يوجد هذا في كل خطيب ومثل ما سماه ارسطو بالسمت وهو ان يكون على هيئة معتبرة في نفوس الجمهور من لبسه وحركته و نحو ذلك ومثل مناسبة طبقة الصوت لموضوع

---

(١) المزون هو الذاهب الى وجهه

الخطبة و غير ذلك .

واما شروط الخطيب في نفسه فاهمها اعتقاده انه على صواب وحق لان ذلك يودع كلامه تأثيرا في نفوس السامعين واقوى له في الدعوة اليه والدفاع عنه و يحصل ذلك بالتزامه متابعة الحق و بكونه على نحو ما يطلبه من الناس. وانظر ما حكاه الله تعلى عن شعيب «قال يا قوم ارايتم ان كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا و ما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه ان اريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب». ومنها عفته ونزاهته. ومنها الوقار والصون عن الابتذال في معاشرة القوم وعدم الاكثار من الهزل والسخف والفحش والخفة و الطيش. و منها النزاهة عن الطمع في جر نفع من كلامه فان في ذلك نفرة عن اتعاظ الناس بقوله وظنة في صدق دعوته وقد قال السروجي بعد ان قام خطيبا

لبست الخميصة ابغي الخبيصه * وانشبت شصي في كل شيصه[1]

ولقد يجدر بنا اذا بلغنا هذا الموضع ان نختمه بذكر بعض عيوب يكثر عروضها للخطباء ليتنبه المطالع الى تجنبها .

واعلم انها تنقسم الى فطري والى مكتسب فاما الفطري فنه ما يمكن تجنبه بكثرة الممارسة نحو الحبسة عند التكلم فقد كان عمرو بن سعد بن ابي العاص البليغ الخطيب في اول امره لا يتكلم الا اعترته حبسة في منطقه فلم يزل يتشادق و يعالج اخراج الكلام حتى مال شدقه من كثرة ذلك و لقب لذلك بالاشدق فقال فيه الشاعر

تشادق حتى مال بالقول شدقه * و كل خطيب لا ابالك اشدق

وقد اعتقد الناس فيه حين انتقل من الحبسة الى الفصاحة ان الجن لطمته

---

(١) فذكر انه احتاج الى ستر مقصده بلبس الخميصة والشص با لكسر هو السنار الذي يصاد به. و الشيصة واحدة الشيص وهو نوع من السمك وانما خص هذا النوع بالذكر ليتأتى له التجنيس

على وجهه ليتعلم الفصاحة وكذلك كان اعتقادهم في الشعراء ان الجن تتراءى لهم وتملي عليهم فقال في ذلك الشاعر

وعمرو لطيم الجن وابن محمد * باسوإ هـذا الراي ملتبسان

وسبه رجل يوما فقال له « يا لطيم الشيطان ويا عاصي الرحمان ، ومن قبل حكي مثل هذا التدرب عن ديموستين خطيب اليونان في عهد الاسكندر الاكبر وقد تقدم ذلك في مقدمة قسم الانشاء . ونحو سقوط الاسنان وكان عبد الملك ابن مروان رحمه الله قد شد اسنانه بالذهب لما كبرت سنه وقال « لو لا المنابر ما باليت متى سقطت . ومن العيب الفطري ما لا يمكن تجنبه كبحة الصوت والفهاهة واللثغة ببعض الحروف [1] وضيق النفس فجدير بصاحبها ان يتجنب هذه الصناعة . واما العيب المكتسب فهو اشياء تعرض للخطباء في اول اشتغالهم بالخطابة من افعال تصدر عن غير اختيار فان هم غفلوا عن مراقبة انفسهم لازالتها صارت لهم عوائد سيئة وقد نهى الادباء عن امور من ذلك كالتنحنح ومسح اللحية اي في اثناء الخطبة لا عند الشروع [2] على انه يغتفر منه ما لا يكثر اذا طال الكلام جدا وحك الجلد وفتل الاصابع وكثرة حركة الايدي والبدن والتمخط وغيره قال من ذم خطيبا

مليء ببهر والتفات وسعلة * ومسحة عثنون وفتل الاصابع

---

(١) ان اللثغ ببعض الحروف هو قلبها الى حرف آخر كقلب الراء غينا والشين ثاء ويتعذر التفادي منه الاماروي نادرا عن واصل بن عطاء الغزال انه كان يلثغ بالراء غينا فتجنب في كلامه كل لفظ فيه راء وعوضه بمرادفه

(٢) لان التنحنح عند الشروع يعين على رفع الصوت قال الحريري في المقامة الحادية والثلاثين « تسنم احدى الاكام * ثم تنحنح مستفتحا للكلام * وقال في المقامة الثلاثين (فلما جلس على زربيته وسكنت الضوضاء لهيبته ازدلف الى مسنده * ومسح سبلته (لحيته) بيده » الخ ومسح اللحية عادة عربية عند ابتداء الكلام في غرض مهم قال الشاعر

فاقسم لو اندى النديُّ سواده * لما مسحت تلك المسالات عامر

(المسالات جمع مسالة وهي اللحية وعامر قبيلة اراد انهم اذا اجتمعوا في النوادي لا يستطيعون الكلام)

الخطبـــة

قد عرفت حقيقتها مما تقدم وليس لمقدارها حد محدود و لكنها تكون بحسب الغرض الذي دعى الخطيب للكلام ثم تكون بحسب ذلك الغرض بين موجزة ومطنبة و متوسطة بحسب ما ياتي في المقامات. و لذلك تكلم الفقهاء على اقل مقدار خطبة الجمعة والعيدين. والمروي في المذهب ان مسمى الخطبة حمد الله وصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم و تحذير وتبشير وقرآن وذلك لان غرض الخطبة الدينية لا يقصر عن ذلك الا ان الخطبة التامة تطول و تقصر بحسب الحاجة الا ترى ان النبي صلى الله علية و سلم كان يقصر الخطبة الجمعية و اطال خطبة الحج لان الاولى تتكرر فيقتصر فيها على ما دعت اليه الحاجة في تلك الجمعة بخلاف الاخرى و متى نظرنا الى اغراض الخطباء في تركيب الخطب نجد الخطبة تعتمد اركانا سبعة :

الركن الاول

الديباجة. وهي فاتحة الخطبة المشتملة على حمد وثناء على الله تعلى و صلاة على رسوله وما هو من ذلك القبيل. قال ابو هلال « لان النفس تتشوق للثناء على الله تعلى فهو داعية الى الاستماع » وقال الجاحظ « ما زال السلف يسمون الخطبة التي لم يفتتح صاحبها بالتحميد البتراء. والتي لم توشح بالقرآن والصلاة على النبي صلى الله علية وسلم الشوهاء. ومن اجل ذلك لقبت خطبة زياد ابن ابي سفيان بالبتراء وهي التي خطبها بالبصرة و اولها « اما بعد فان الجهالة الجهلاء. والضلاله العمياء والغي الموفي باهله على النار ما فيه سفهاؤكم. و يشتمل عليه حلماؤكم من الامور العظام ينبت فيها الصغير و لا يتحاشى منها الكبير الخ » وفي التسمية اشارة الى حديث كل امر ذي بال لا يبدا فيه باسم الله فهو ابتر وسميت خطبة سحبان بالشوهاء خطب بها في مجلس معاوية و قيل سميت بذلك لحسنها(١)

(١) اذ الشوهاء في كلام العرب قد يطلق على العابسة و الجميلة

و يستحسن في الديباجة الايجاز و الارتباط بالمقصود و يسمى ذلك ببراعة الاستهلال. كما يستحسن فيها الاعتناء بالبلاغة والصناعة. و يحسن وقع السجع فيها لانه يضارع الشعر فينشط النفس و يهيء الاذهان الى ماسيلقى اليها. وليس يصعب على الخطيب الحاذق التأني في الفاتحة لانها لما كانت مشتملة على امور عمومية امكن تحضيرها من قبل في النفس وانما يظهر الحذق في حسن مناسبتها للغرض واشارتها اليه وقد عد علماء البلاغة فاتحة الكلام من مواضع تأنق المتكلم

الثاني

التخلص . وهو موقع اما بعد و نحوها مثل ايها الناس والشرط فيه ان تكون الديباجة قد هيأت النفوس واشعرت بالغرض المطلوب

الثالث

المقدمة . وهي مبدأ الخطبة في الحقيقة و نعني بها الكلام الذي يقصد منه تهيئة نفوس السامعين لتلقي ما سيلقى اليهم بالتسليم. وطريقة ذلك ان يستعين الخطيب بما يعلم من سجايا الاقوام ومقادير انفعالاتهم على اختلاف الطبقات و العصور و العقائد. فياتي لكل فريق بمقدمات تهيء لقبول الغرض ولذلك لم يلزم ان تكون المقدمة صحيحة بل يكفي ان تكون مقبولة مسلمة ولو كانت وهمية

وقصد الخطيب قمع الهوى ومحاولة الصلاح والهوى حائل قوي دون الحق فاذا اريد الاقناع بشيء فمن الواجب ان لا ينقض عليه بل يحوم حوله و ينتهز الفرصة لتحصيله. و بمقدار الظن ببعد نفوس السامعين عن الاعتراف بالحق ينبغي للخطيب الابعاد بالمقدمات . ويتوصل الخطيب الى انتهاز الفرصة التي تقوم مقام تطويل المقدمة بالاستعانة بامور :

احدها المعتقدات الثابتة في النفوس ولو كانت غير صحيحة كما اشرنا اليه ويظهر اختيار بعض طرائق الانفعال دون بعض في هذا المجال وهو من اهم ما يتفطن له الخطيب اللبيب. الا ترى ان النبي صلى الله عليه وسلم لما خطب النساء

ورغبهن في الصدقة قال « يا معشر النساء تصدقن رب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة» فقد كانت طرق اخرى من التحذير اشد من هذا الا ان النساء لما كن يتقين العراء والكشف كان ذكره من اشد ما تنفعل له نفوسهن . ثانيها القضايا الكلية والمسلمة كقول عثمان رضي الله عنه في خطبة له في شان الناقمين عليه وتحذير المسلمين من سوء نواياهم « اما بعد فان لكل شيء آفة ولكل نعمة عاهة وان آفة هاته الامة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون يظهرون لكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون لقدا قررتم لابن الخطاب باعظم مما نقمتم علي ولكنه وفمكم وقمعكم الخ». ثالثها النوازل الحادثة فانها فرص للموعظة والنفوس عند نزولها سريعة الانفعال رقيقة الوجدان وللنفوس غرة كغرة الصيد فاذا لم يضعها الخطيب اصاب منها الغرض ولهذا سنت الموعظة عند خسوف الشمس ولقد اجاد الحريري ما شاء حين تخيل ابا زيد خطيبا اثر دفن الجنازة في المقامة الحادية عشرة اذ قال « فلما الحدوا الميت. وفات قول ليت. اشرف شيخ من رباوة. متخصرا بهراوة. فقال لمثل هذا فليعمل العاملون . فادّكروا ايها الغافلون. وشمروا ايها المقصرون. واحسنوا ايها المتبصرون. ما لكم لا يحزنكم دفن الاتراب. ولا يهولكم هيل التراب الخ » فانت تراه كيف جعله مستغنيا بذلك على مقدمة الخطبة . ولما افلس الاسيفع الجهني في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب عمر فقال « اما بعد فان الاسيفع اسيفع جهينة قد رضي لدينه وامانته ان يقال انه سبق الحاج الا وانه قد تداين معرضا فاصبح وقد رين به فمن كان له عليه شيء فليا تنا غدا نقسم ماله بالمسجد واياكم والدين فان اوله هم وآخره ترب (١) فتراه قد استغنى بالواقعة المشاهدة عن تقديم المقدمة

---

(١) المراد بسبقه الحاج انه كان يسبق فيكتري دواب اهل مكة ليحتكرها فيكريها للحجاج بغلاء وقوله ترب بالتحريك بمعنى الفقر من قولهم ترب الرجل من باب تعب اذا افتقر

الرابع

من اركان الخطبة الغرض وهو الذي لاجله انتصب الخطيب ليخطب فوزانه وزان المطلوب في القياس المنطقي ويعبر عنه بالنتيجة عند حصوله

الخامس

البيان اعني بيان الغرض وايضاحه وذلك اما بالاستدلال. او التمثيل. او الاستطراد. او الاشارة. فالبيان بالاستدلال كثير باقامة الدليل على صحة الغرض والنضال عنه. واما التمثيل فباب واسع من البيان للعامة لانه اخصر من الدليل والاذهان الى ادراكه اسرع. قال صاحب الكشاف ولضرب العرب الامثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شان ليس بالخفي في ابراز خفيات المعاني ورفع الاستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق والغائب كالشاهد وفيها تبكيت للخصم الالد وقمع لسورة الجامح الابي قال الله تعلى «وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» والتمثيل يكون بذكر الأمثال ويكون بالبناء على اعتقاد او قصة. وقد خطب عبد الملك بن مروان بالمدينة خطبة اقتصر فيها على ذكر المثل روى شارح ديوان النابغة عن ابي عبيدة قال «لما حج عبد الملك اول حجة حجها في خلافته قدم المدينة فخطب فقال «يا اهل المدينة والله لا تحبوننا ولا نحبكم ابدا وانتم اصحاب عثمان اذ نفيتمونا عن المدينة ونحن اصحابكم يوم الحرة فانما مثلنا ومثلكم كما قالوا انه كانت حية مجاورة رجلا فوكعته فقتلته ثم انها دعت اخاه الى ان يصالحها على ان تدي له اخاه فعاهدها ثم كانت تعطيه يوما ولا تعطيه يوما فلما استنجز عامة ديته قالت له نفسه لو قتلتها وقد اخذت عامة الدية فاخذ فاسا فلما خرجت لتعطيه ضربها على راسها فسبقته يده فاخطأ مقاتلها فندم وقال لها تعالي نتعاقد ان لا نغدر فقالت ابى الصلح القبر الذي بين عينيك والضربة

التي فوق رأسي فلن تحبني ابدا ما رأيت قبر اخيك ولن احبك ما كانت الضوبة برأسي (١) وروي ان عليا رضي الله عنه لما رأى اختلاف جنده قال « الا انما اكلت يوم اكل الثور الابيض » يريد ان الاختلاف ابتدأ ظهوره من يوم اختلاف الامة على عثمان رضي الله عنه واشار بهذا الى قصة عند العرب وذلك انهم زعموا ان اسادا وثورا احمر وثورا اسود وثورا ابيض اصطحبوا في اجمة فقال الاسد يوما للثورين الاحمر والاسود هذا الثور الابيض يفضحنا بلونه فلو تركتماني آكله أمنا فاذنا له في اكله فاكله ثم قال للاحمر هذا الاسود يخالف لوننا فدعني آكله فاذن له فاكله ثم قال الاحمر لم يبق الا انا وانت واريد ان آكلك فقال ان كنت فاعلا فدعني اصعد تلك الهضبة واصيح ثلاثة اصوات قال افعل فصعد وصاح « الا انما اكلت يوم اكل الثور الابيض » ثلاثا . واما الاستطراد فيكون بمدح او ذم او ثواب واحسنه ما اشتدت فيه المشابهة كقول ابي حمزة (٢) الخارجي في خطبة له خطبها بالمدينة « يا اهل مكة اتعيرونني باصحابي وتزعمون انهم شباب ويحكم وهل كان اصحاب رسول الله المذكون في الخير إلا احداثا شبابا مكتهلون في شبابهم غضيضة عن الشر اعينهم ثقيلة عن الباطل ارجلهم انضاء عبادة قد نظر الله لهم في جوف الليل منحنية اصلابهم على اجزاء القرآن الخ » وقد يكون البيان بالاشارة كما خطب مصعب ابن الزبير حين قدم العراق فانه صعد

---

(١) ذكر هذا شارح الديوان عند ذكر النابغة هاته القصة في قصيدته الهائية التي طالعها الا ابلغا ذبيان عني رسالة. وقال في آخرها عن قول الحية

أبى لي قبر لا يزال مقابلي ☆ وضربة فاس فوق راسي فاقرة

(٢) ابو حمزة اسمه يحيي بن المختار كان من خطباء الاباضية ونساكهم وهذه خطبة له ذكرها الجاحظ في البيان والتبيين وقد يكون الاستطراد الا مناسبة كقول كعب ابن زهير شجت بذي شبم من ماء محنية البيتين

المنبر ثم قال « طسم تلك آيات الكتاب الحكيم نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الارض الى قوله المفسدين (واشار بيده نحو الشام) ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض الى قوله الوارثين (واشار بيده نحو الحجاز) ونمكن لهم في الارض الى قوله يحذرون (و اشار بيده نحو العراق) يريد بالاولى عبد الملك و بالثانية انصار اخيه بمكة و بالثالثة الحجاج وانصاره

السادس

الغاية وهي التحريض او التحذير وشانها ان تقع آخر الخطبة بعد ما تقدم وقد يقدمها الخطيب ثم ياتي بعدها بغيرها فتصير المقدمة دليلا اذا تاخرت و تعرى الخطبة عن المقدمة حينئذ

السابع

خاتمة الخطبة و يحسن فيها ان تكون كلاما جامعا لما تقدمه او اشارة الى انه قد اتى على المقصود وانتهى منه او امر بالتثبيت او دعاء او نحو ذلك وانما يكون ذلك عند اتيان الكلام المتقدم على الغرض المقصود واستيفائه وقد يكون ذكر الشعر في الخطبة اشارة الى نهايتها كما سياتي

و للبحث عن كيفية تنسيق الخطبة و نسجها مزيد تعلق بهذا الفن حسبما اشرنا اليه عند الكلام على اصول الخطابة ولا يكاد يستطيع احد حصر الضوابط في هذا الغرض لانه ياتي على جميع فنون البلاغة والادب فيوكل ذلك الى حسن اختيار الالمعي ورشيق توقيف المدرس النحرير الا ان جملة القول انه لا يعدو المطابقة لمقتضى احوال السامعين واختلاف الاذواق باختلاف مراتب الاذهان والعصور والبلدان فيكون على منوال كل ذلك نسيج معاني الخطب و تنسيق الفاظها وهو ما يعبر عنه باختلاف المقامات وخطاب كل قوم بما يفهمون وقد

تقدم الامام بذلك في قسم الانشاء وفي ذكر الانفعالات في هذا القسم الخطابي. فاذا خطب الخطيب في العامة فعليه بسهل المعاني لان تركيب المعنى ودقته لا يتوصل لفهمه الذهن البسيط وبالضرورة يستدعي ذلك سهولة دلالة الالفاظ اذ هي قوالب للمعاني مع انتخاب سهلها و متعارفها بدون ابتذال كما تقدم في الانشاء. واذا خطب في الخاصة فليات بالمعاني الرائقة والحكم العالية والالفاظ العزيزة المعبر عنها بالسهل الممتنع لانه اذا اتى بما دون ذلك لا يثير انفعالهم و لا يروق كلامه في اسماعهم فلا يحفلون به. ولقد سمعت خطيبا يخطب يوم الجمعة بخطبة من الخطب العتيقة في الحض على شكر النعمة فكان مما قاله (ومن النعم نعمة خاصة كالمال وقد كاد ان لا يكون شكرها الا عندها لا بها) فانظر كيف خاطب العامة بلفظ معقد لا يسرع الذهن المتوسط لاستخلاص معناه اذ جمع بين ست ادوات في جملة واحدة وهي كاد وان ولا و يكون والا و لا ثم جمع بين نفي مستفاد من - لا - واثباتين مستفاد احدهما من كاد والاخر من - الا - متوجه جميعها الى جهة واحدة واما من جهة المعنى فقد اتاهم بمعنى غريب دقيق مقتبس مما يقرره المتكلمون في الكسب و هو قولهم ان الفعل يحصل عند القدرة لا بها. وقد روي ان عمر رضي الله عنه كان هم ان يخطب في الحج في امر الخلافة لما بلغه ان امرأ قال لئن مات عمر لا بايعن فلانا فما كانت بيعة ابي بكر الا فلتة فتمت. فقال له ابن عباس رضي الله عنهما « يا امير المؤمنين ان الموسم يجمع رعاع الناس. فربما سمعوا منك الكلمة فيطيروها عنك كل مطير فتربص الى ان ترجع الى المدينة فتخلص الى اصحاب رسول الله وأهل العلم» فرأي حبر الامة و موافقة عمر رضي الله عنهما ادل دليل على ان من الاغراض ما يضن به عن غير اهله وفي الحديث (لا تؤتوا الحكمة غير اهلها فتظلموها ولا تمنعوها اهلها فتضيعوها) فبذلك فلتقتدوا. و مثل ذلك يقال في اساليب تنسيق الخطب على حسب الاغراض فلكل غرض لهجة ونسق فليست خطبة الجمعة كخطبة في حفلة سياسية او ادبية

ولذاك يحسن التانق في بعضها والبساطة في بعض كما انه يحسن الارسال في بعضها ويحسن السجع في بعض. وقد تتبعت ما استطعت مواقع السجع في الخطب النبوية وخطب فصحاء العرب في الجاهلية والاسلام فرأيت مواقع السجع عندهم في حيث يراد الحفظ للقول كالوصايا والآداب والخطب الادبية والعلمية ويرشد الى هذا ما روى الجاحظ عن عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي انه قيل له لم توثر السجع على المنثور فقال «لو كنت لا آمل بكلامي الا اسماع الشاهد لقل خلافي عليك ولكني اريد الغائب والحاضر والراهن (الحال) والغابر (المستقبل) فالحفظ اليه (اي السجع) اسرع والاذان لسماعه انشط وهو احق بالتقيد وبقلة التفلت». وعندي ان هذا هو مراد الشيخ عبد القاهر بقوله في مقدمة كتابه اسرار البلاغة حيث قال «ان الخطب من شانها ان تعتمد فيها الاوزان والاسجاع فانها تروى وتتناقل تناقل الاشعار» وليس مراده ان تناقل ذلك شان الخطب كلها لما هو معلوم لا يفوته من اساليب خطب العرب وخطب الصدر الاول ولذلك كان مقام السجع كل مقام يحضر للقول من قبل فقد راينا العرب لم تكن تحفل بالسجع الا هنالك كما في خطبة قس بن ساعدة التي خطبها في سوق عكاظ وهي مشهورة وكل مقام يظهر فيه الارتجال لا يتاتى فيه السجع فيحسن حتى بالمولدين ان يتجنبوه هنالك وان كانوا لا يتكلمون الابتر وسابق ولذلك لا تعد خطبة منذر بن سعيد البلوطي التي ارتجلها في مجلس الامير الناصر بقرطبة حين وفد رسل ملك الروم وحين ارتج على ابي علي القالي الا من حسن استعداده للحوادث وعلمه بان من عين للخطابة لا يحسنها[1] وقد قدمنا في فن الانشاء طرفا من هذا.

هذا ومما يلتحق بالكلام على نسج الخطب اشتمالها على شيء من الشعر وكان ذلك قليلا عند العرب كما في خطبة قس بن ساعدة اذ ختمها بابيات وكما في خطبتين

(١) انظر خطبة قس في اول البيان والتبيين وانظر خطبة منذر في ترجمته من مطمح الانفس للفتح بن خاقان

لسيدنا علي رضي الله عنه تمثل في احداهما ببيت الاعشى و في الاخرى ببيت دريد بن الصمة وكذا خطبة عبد الملك المتقدمة فانه ذكر في آخرها بيت النابغة[1]

وقد اكثر صاحب المقامات في خطبه المذكورة فيها من ذكر الشعر ولا شك ان غرضه منه ادخال طريقة جديدة في الخطابة الا انه لم يتابع عليها من احد فلم يزل ذكر الشعر في الخطب قليلا جاريا مجرى التمثل

التدرب بالخطابة

قد قدمنا في قسم الانشاء ان اجدر بالغ بالمرء الى اتقان هذه الصناعة هو التدرب والتمرن ولا شك ان الخطابة الى ذلك احوج وهي به اعلق فان لصاحبها فضل احتياج الى بداهة القول وحسن العبارة ولا يكاد ينال ذلك الا بالتمرن عليها والا كان عالة على ما حرره المتقدمون او التزم كليمات يعيدها اينما حل وقد حكى الجاحظ عن محمد بن سليمان انه كان ملتزما خطبة يوم الجمعة لا يغيرها. ويظهر ان اصول التدرب على الخطابة خمسة امور: اولها ضبط الغرض المراد التكلم فيه وذلك بتصوره وتصور الغاية منه وحسن تفهمه واتقانه والاحاطة بمهم ما ينبغي ان يقال فيه من المعاني ولا يهتم بالالفاظ الا بعد ذلك

---

(١) بيت الاعشى هو

شتان ما يومي على كورها * ويوم حيان اخي جابر

وهو في الخطبة المعروفة بالشقشقية صحيفة ٢٢ نهج البلاغة وبيت دريد هو قوله

امرتهم امري بمنعرج اللوى * فلم يستبينوا النصح الاضحى الغد

وهو في صحيفة ٥٣ وبيت النابغة هو

ابى لى قبر لا يزال مقابلي * وضربة فاس فوق راسي فاقره

لانه ان ابتدأ بانتقاء الالفاظ ضاعت عنه المعاني. ثانيها التكرير ليرسخ اما باعادة الفكرة فيه المرة بعد الاخرى واما بمذاكرة الغير فيه و التنبه لما عسى ان يكون قد اغفله فان ما بين الرأيين رأيا ولانه بالمذاكرة يرى المتكلم هل بلغ الى حد التاثير في السامعين حتى ان لم ير منهم التاثير علم انه لم يتقن الغرض ولم يقتله تعبيرا . ثالثها اختيار ساعة نشاط البال كما ذكر ابو هلال العسكري والجاحظ عن بشر بن المعتمر انه قال لمن علمه الخطابة « خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك فان نفسك تلك الساعة اكرم جوهرا واشرف حسبا واحسن في الاستماع واسلم من فاحش الخطا واعلم ان ذلك اجدى عليك مما يعطيك يومك الاطول بالكد والمطاولة ومهما اخطاك لم يخطيئك ان يكون مقبولا وخفيفا على اللسان كما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه». رابعها تدريب القوة الذاكرة وذلك بتجنب الاعتماد على الكتابة بقدر الاستطاعة وقد يعسر ذلك على المرء بادىء بدء فيغتفر حينئذ الاعتماد على الكتابة على شرط ان ياخذ في الاقلال من الكتابة تدريجا فيكتب عقد الموضوع كالفهرس ويشير عندها الى خلاصة الامثلة واذا اخذ في استحضار اول خطبته فانه ان استرسل فيها جاءته البقية طوعا ومع ذلك فقد قيل ان الذي يعتمد على ذاكرته تلبيه مسرعة واذا قدر لبعض الخطباء كتابة مفكرات الخطبة فمن المستحسن ان لا يحضرها معه وقت الخطابة ولكن من الخطباء من يضطر الى ذلك لضعف ذاكرته ولا ضير في ذلك اذا لم يكثر تردد بصره عليها. خامسها المواظبة فيشترط في الخطيب ان يكون غير هياب ولا وجل من تكرير التكلم وعدم الاكتراث في اول الامر بالاجادة وقد عرفت ما نقل عن عمرو بن سعيد الاشدق وعن ديموستين الخطيب اليوناني اذ كان كل منهما في اول امره عييا فعالج بالمواظبة والتدرب حتى صار افصح خطباء زمانه اهـ

هذا غاية ما تعين تحريره من فن الخطابة لابناء الادب السامية هممهم لمراقي الفنون* الابية نفوسهم من الاقتناع بالدون* فاذا انعطف عليه صنوه السالف والتف به التفافا يبسط ظله الوارف* جاء بحمد الله تعلى كتابا وافيا بما لا غنى عن معرفته للمنشيء والخطيب* كافيا عن المطولات بلمحة تغني اللبيب*

كلمة للمصحح

اليك ايتها اللغة

تمر الايام ونحن في خجل امام محياك. لهجرنا معالمك ومغناك. تركنا موردك العذب فنضب لنا سلسبيله. بل ضل علينا طريقه وسبيله. رماك المغرضون. وتبعهم منا القاصرون. فقبحوا منك الحسن. ونسبوك الى الضيق في العطن. جهلا او تجاهلا

والنجم تستصغر الابصار رؤيته * والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

فأثر ذلك بيننا تاثيرا سيئا نتج عنه قلة الكتاب وفقدان الخطباء. تمضي الشهور والاعوام ولا نرى تركيبا يروقنا حسن وقعه. او مثلا يرسل الى مورده ونجعه. بل لا نرى الا طائفة من التراكيب والامثال تداولتها الكتاب واكثروا من ايرادها حتى انا لنجزم من طالعة الموضوع بما سيحشر فيه من التراكيب. وبذلك وجد المغرضون سبيلا لرميك بالتقصير.

عفوا ايتها اللغة الكريمة فان الذنب منا عظيم. والتقصير منا كبير. سبحان الله اتهجر رياضك الفيحاء ومعالمك الغناء التي لولاها لما امكن لقيس ابن خارجة ان يقول عندما سئل ما عندك: فقال عندي قرى كل نازل. ورضى كل ساخط. وخطبة من لدن تطلع الشمس الى ان تغرب. آمر فيها بالتواصل. وأنهى عن التقاطع. وخطب يوما كاملا فما اعاد لفظا ولا معنى.

ولما تسنى للواصف ان يصف القلم بقوله :

لعمرك ما السيف سيف الكمي ❀ بأخوف من قلم الكاتب

له شاهد ان تاملته ❀ ظهرت على سره الغائب

اداة المنية في جانبيه ❀ فمن مثله رهبة الراهب

سنان المنية في جانب ❀ وسيف المنية في جانب

الم تر في صدره كالسنان ❀ وفي الردف كالمرهف القاضب

الى غير ذلك من مواقف الخطباء التي تشهد بسعة مبانيك . وغزارة معانيك .

حاشى افراد تدرعوا بالثبات . ووقفوا موقف الغزاة . لم تفل قناتهم عوامل التقليد . ولم يذهب بهم التيار الشديد . كأستاذنا الغطريف الشيخ سيدى محمد الطاهر ابن عاشور قاضي الجماعة بالديار التونسية حفظه الله فانه ما فتىء يعمل لارتقاء شانك ورفعة مكانك . والاخذ بضبعك وانتشالك . مرات بالقاء المسامرات واخر بدراسة ديوان الحماسة بالمعهد الزيتوني

فلكم أبان بين عرصاته عن دقيق معناك . ولطيف مبناك . وقد شرحه شرحا بديعا يعز نظيره .

ولما القت اليه خطة القضاء القياد . وانتفع منه الحاضر والباد . واشتغل بمهامها الكثيرة الترداد . التي من ضمنها النظارة العلمية . ورأى ان صناعة الانشاء قد ضيم جانبها حيث لم يعين لها كتاب يعتمد عليه المتعلمون لمراجعة ما درسوه . وتطبيق ما سمعوه . أنبرى رعاه الله الى تاليف مختصر ضبط فيه طرائق الانشاء والخطابة . على الطريقة الاولى والفصحى من العرب سماه . (اصول الانشاء والخطابة) ومن عنايته الكبرى وشغفه القوي

بنشر اللسان العربي الصحيح لانه الاكسير الاعظم والدعامة الكبرى للنهوض بالامة بادر بطبعه في (مطبعة النهضة) على نفقته ابقاه الله

ويكفينا تقريظا لهذا المؤلف النفيس الذي سيظهر نفعه للنابتة والمتعلمين فنرى بحول الله في ربوعنا المنشيء البارع والخطيب المصقع . ان نحيلهم على مطالعة ما في غضونه من بديع الطرائق وحسن الاسلوب

بشرى لنابتة البلاد وربعها ❀ بقواعد الانشا ومحكم وضعها
يا (طاهر) الذيل المعمم بالذكا ❀ حبرتنا نهجا يشد بضبعها
اسديت للاداب حسن طرائق ❀ يصل اللبيب لخالص من نبعها

معاوية التميمي

حرر بتونس في ذي الحجة عام ١٣٣٩ [اوت ٢١ ـ ١٩٢١]

ولما اطلع عليه اثناء طبعه العالم الفاضل والاستاذ الذى له في نشر المعارف سعي متواصل الشيخ سيدي محمد بن القاضي المدرس من الطبقة العليا بالجامع الاعظم ادام الله به النفع كتب مقرظا ومؤرخا

احكمت للكتاب والخطباء ☆ في ذا الكتاب قواعد الانشاء
واخترت اسلوبا اراه موصلا ☆ بل كان قبل اليوم كالعنقاء
فلك الثنا ممن غدا متعلما ☆ ومعلما في سائر الأنحاء
ولذا اقول لمن يتمم طبعه ☆ ارخ دليل قواعد الانشاء

الانشاء	قواعد	ارخ دليل
١٠٨٤	١٨١	٧٤

سنة ١٣٣٩

فهرس المباحث واهم المسائل

صحيفة

صحيفة

فن الخطابة

صحيفة



فهرس اصلاح ماوقع من الخطأ او النقص اوالايهام

(تنبيه) وقع في الديباجة اهمال بعض علامات الفصل بين الاسجاع لاتحتاج للتنبيه لانها لاتشتبه على الناظر النبيه .

صحيفة	سطر	الخطأ اوالنقص اوالايهام	اصلاحه
٢	٧	مطالبه	طالبه
٦	١١	وبداهة	وبدائه
«	١٣	كتاب ابي عبيدة	كتب ابي عبيدة
٧	٢	والشيخ	والنسج
«	١٣	مليبوس	فيليبوس
٨	٥	ومفرغة	ومفرعة
١٠	٣	اكثره	كثرة
١١	٤	الاغراض	الاغراض »
«	١٦	بالتقيد	بالتعقيد
٢٠	٢٠	تقتلوا	يقتلوا
٢١	٣	عنه الحق	عنه « الحق
«	٤	رضيت	رضيت »
«	٢١	بان	فان *
٢٤	١٦	جهات ترتب	جهات : ترتيب
«	١٩	الطبيعي وان كان	الطبيعي نحو قوله تعلى ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب فان مدلولات هذه الجمل تحصل في الخارج على نحو هذا الترتيب اذ اول ماتحصل الاساءة في النفس ثم فراغ الصبر ثم التضجر بالقول . وان كان الخ

صحيفة	سطر	الخطأ او النقص او الايهام	اصلاحه
٢٧	٦	حصوله	حصولها
٢٨	٨	فهي	فهو
«	١٠	الرايات فاجابهم	الرايات . ـ فاجابهم
٣٠	٤	الاختيار	الاختيار . »
«	١٥	الطويل	الطويل . »
٣١	٣	انسلالهم منه	انسلالهم منه .
٣٤	٧	هذا الثاني	هذا . الثاني
٣٥	١٣	عقل . واما	عقل ومنه قول صاحب حسن التوسل في وصف مقدم سرية جيش « اروع للعدى من سلة سيف. حتى يتعجبوا في الاطلاع على عوراتهم من اين دهى وكيف » فلو ابدل كلمة الاطلاع بالاتباع لسلم من الهجنة الحاصلة من الجمع بين كلمتي الاطلاع والعورات . واما
٣٦	٤	الاثم »	الاثم .
«	٥	السعيدة .	السعيدة . »
٣٧	١	بعض والانتقال	بعض . والانتقال
«	٢	الى اسلوب وحسن	الى اسلوب . وحسن
«	١٣	شيء	شيئا
٤٣	١٦	« مع	مع
«	١٩	البهائم	البهائم »
٥٠	٨	الرسالة	الرسائل
«	١١	الرسائل	الرسالة

صحيفة	سطر	الخطأ او النقص او الايهام	اصلاحه
٥٧	٤	تولى	تولي
٦٠	٢١	ونحو ذلك ومثل	ونحو ذلك وقد اشار الحريري الى هذا في المقامة ٢٨ فقال برز الخطيب في اهبته*متهاديا خلف عصبته» فاشار الى تصنعه في لباسه ومشيه
٦٥	١٩	ترب	حرب (١) »
»	٢٢	وقوله ترب بالتحريك الخ	وقوله حرب بالتحريك مصدر حربه كطلبه بمعنى سلب ماله فهو محروب وحريب
٦٧	٥	ان اسادا	ان اسدا
»	١٣	المذكون	المذكورون
»	٢٢	الامناسبة	لامناسبة فيه
٦٨	١	الكتاب الحكيم	الكتاب المبين
٧٠	١٧	تعد	نعد
٧٢	١٩	من تكرير	مع تكرير
٧٣	٧	عضيم	عظيم
٧٤	١٠	فاضي	قاضي